الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العـــدد ٦٥ – اول اكتوبر سنة ١٩٣٤ – السنة الثانية

2me Année, No. 65.

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi-1-10-1934

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العـــدد ٦٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العــــدد

الأزمة والغـــلاء !

مضت أربعة أعوام ، وريح الأزمة الأقتصادية العالمية تهب على مصر بقوة ، تضاعفها وتذكيها الظروف المحلية ، وملايين الزراع والفلاحين يرون جهودهم وآمالهم تذهب هباء ، ومحاصيلهم تباع بأبخس الأثمان ، والدين يرهقهم ، والحاجة تنذرهم بشر العواقب ، وباقى الطبقات تشاطرهم هذا البؤس الأقتصادى . ولما كانت الحياة الأقتصادية كلها متصلة النواحى ، وكان الأنتاج والاستهلاك مرتبطين أشد الارتباط ، فقد اضطر الناس الى الاقتصاد بحكم الضرورة والنزول على أحكام الأزمة ؛ وكان فى هبوط نفقات العيش بعض التنفس ، ولاسيما للطبقات الفقيرة ، ولكن الضيق لبث مع ذلك يرهق كل الطبقات .

وإذا كانت الأزمات الاقتصادية محناً شعبية عامة تعانيها جميع الطبقات ، فانها تغدو فى كثير من الأحيان ميداناً لنشاط بعض المستغلين الذين لا ذمة لهم ، والذين لا تزدهر ثرواتهم إلا فى أيام المحنة والضيق . وكذلك وقع خلال الأزمة الأخيرة ، فقد ظهر المستغلون فى الميدان ، فظهر الغلاء المصطنع فى حاجات

العيش الضرورية ، وهي التي تشترى من المزارع والفلاح بأبخس الأثمان ، وصرخ الناس غير مرة ، ولكن ماذا يجدي الصراخ والحكومة لا تعني بأمر المستغلين والمضاربين ؟

واشتدت وطأة الغلاء منذ أسابيع ، وظهرت بنوع خاص في أثمان الخبز — قوت الشعب — واللحم ، والزبد ، وغيرها من ضرورات العيش ، وضج الناس ولا سيما الطبقات الفقيرة من هذا العنت الذي لا تبرره ظروف الأزمة ، ولا يتناسب مع نتائجها ، واتجهوا ببصرهم الى الحكومة لكي تتدخل لحمايتهم وإنقاذهم من شره المضاربين والمستغلين . خصوصاً وأن هذا الارتفاع الطارىء في أثمان الحبوب ، وهو الذي ترتبت عليه هذه الموجة من الغلاء ، لم يرتفع إلا بعد أن خرج معظم المحصول من يد المزارع والفلاح ، فلن يفيد منه سوى القليل .

فماذا فعلت الحكومة ؟ قررت أن تشترى ربع مليون أردب من القمح الأسترالي لتستدرك — على ما صرح به رئيس الوزارة — النقص في المحصول المحلي ، ولتنذر بذلك المضاربين والمستغلين بأنها سوف تضرب على يدهم إذا لم يقفوا عند حد الاعتدال .

ومن حق الشعب أن يتطلع في مثل هذا المأزق الى حكومته ، والحكومات في جميع الأمم المتمدينة تضطلع بمهمة محاربة الغلاء المصطنع أو الحقيقي ، وتسن لذلك القوانين الرادعة إذا اقتضى الأمر ، وكثير من الحكومات والبلديات يتولى الاشراف على تموين الشعب ، فيحدد وزن الخبز ونوعه وأثمانه ، ويتخذ غير ذلك من الاجراءات الكفيلة بالضرب على أيدى المحتكرين والمستغلين ؛ وإذاً فليس علينا لوم إذا نحن تطلعنا الى الحكومة لتتخذ ما يجب من الوسائل لحماية المستهلكين ومكافحة الغلاء ، ولحفظ التوازن المعقول بين ما يجنيه المزارع من محصوله ، وما يقتضيه التاجر من المستهلك ثمناً لوساطته . وليس من وسائل الحماية الناجعة أن تستورد الحكومة مقداراً محدوداً من القمح الأجنبي على نحو ما قررت ، ولكن الوسيلة الأولى هي أن تخفض الرسوم الجمركية على الحبوب الأجنبية ، وهي التي رفعت في وقت كانت فيه وفرة المحصول المحلي تبعث إلى هبوط الأثمان هبوطاً شديداً .

لتتخذ الحكومة هذه الخطوة وغيرها مما تراه ضروريا لدرء كارثة جديدة تنذر ملايين الفقراء بالجوع ، ولا يستفيد منها سوى قلة من المحتكرين والوسطاء ، على أن هنالك عاملا آخر لم يتوفر لدينا بعد ، ذلك هو المقاومة الشعبية ، فمن الواجب أن نعود أنفسنا هذه المقاومة التي لا بد منها في مثل هذه الظروف . ولو أن الجمهور يعني بالحرص على حقوقه الشعبية ، لكانت المقاومة الفردية والشعبية في مثل هذه الأحوال خير وسيلة للحماية . ولو عني كل فرد بأن يقتصد حيثما وجب الاقتصاد ، وأن يحرم نفسه بعض الكماليات وقت الضرورة ، وأن يجرب جميع الوسائل الممكنة لمقاومة طغيان المحتكر ، وإنقاص منسوب الاستهلاك ، لكانت حاجته الى حماية الحكومة في مثل هذه الظروف أقل بكثير مما نشهد اليوم ، إذ لا حول لجمهورنا ولا قوة إلا أن تنجده الحكومة ، وإذا أجابته فانها لا تستطيع أن تذهب معه دائما الى حيث يريد .

وهذا ظرف يستطيع الجمهور فيه أن يبدى الى جانب ما يمكن أن تقوم به الحكومة شيئاً من المقاومة الفردية الحكيمة ، فاذا استطاع أن يفعل فانه يبرهن على حيويته ، وعلى أنه حريص على حقوقه ، وأنه لا يذعن لنير المؤتمرين به من رهط المستغلين والمستفيدين الذين يعملون على سلبه دون أنفة ، ويبرهن أخيراً على أنه ليس عالة مطلقة على حكومته في جميع شئونه ومرافقه ؟

فهرس المجلد الاول من السنة الثانية

وزعنا فهرس المجلد الاول من السنة الثانية مع هذا العدد على المشتركين والمتعهدين ومن أراده من غيرهم فليطلبه من الادارة

عدو الديمقراطية

للأستاذ أحمد أمين

لندع الديمقراطية السياسية ، فلها نظرياتها ولها رجالها ، ولها نزاعها الحار بين دعاتها وأعدائها .

ولنتكلم فى الديمقراطية الاجتماعية وأعدائها — فأكبر مظاهر الديمقراطية الاجتماعية الاشتراك فى مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة ، فاذا رأيت فى القطار درجة أولى وثانية وثالثة فهذا مظهر أرستقراطى ، وإذا رأيت ذلك فى عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت أحياء يعنى فيها بالكنس والرش والنور ، وأحياء لايعنى فيها هذه العناية . فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت فى المآتم والأفراح كراسى ضخمة مذهبة ، وأخرى عادية ساذجة ، وقوماً يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم فى الصدر ، وآخرين يُستقبلون فى غير حفاوة فيجلسون فى الذيل فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت فى قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوين ، وأخرى حقاً مشاعاً للدهماء . فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة ، ويغلقونها فى وجه ذى الجلباب الأزرق . فذلك نوع من الأرستقراطية . وإذا رأيت مقهى افرنجياً فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد . ومقهى بلدياً فيه فنجان القهوة بخمسة مليمات أو تنقص ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، ولا أسترسل فى ذلك ، فلعلك — ياصاحبى — فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية ، وعلمت أنك فى كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر فى أشكالها المختلفة ، وألوانها المتعددة .

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية ، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية ، ولهم على ذلك حجج وبراهين .

ولكن لعل أعدى أعداء الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعاتها ، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شىء واحد هو « الوساخة » أو « القذارة » أو ما شئت فسمه . فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم ، عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن الوساخة .

قد يركب راكبٌ الدرجة الأولى فى القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أونحو ذلك من أعذار كلها سخيفة ، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن ، وهو وساخة ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم .

وقد يتطلب بعض الناس أغلى مطعم وأغلى مقهى حباً فى الظهور ورغبة فى الجاه ، وطلباً لمخالطة العظماء ، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة فى هذا المطعم وهذا المقهى ، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهى الرخيصة .

فلو عنى الناس بالنظافة ، وكان من لبس لبس نظيفاً ، ومن فتح مطعماً أو مقهى عنى بنظافته ، وكان الفرق بين لبس الغنى والفقير ، والمطعم الغنى والفقير ليس فرقاً فى الكيف ، فالكل نظيف ، وإنما هو فرق فى النوع والكم ، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية فى كثير من نواحيها ، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء فى مأكلهم ومشربهم ومركبهم ، ولسلحوا الديمقراطية بسلاح قوى متين ، ولهذا ترى الأمم التى عنيت بالنظافة والتزمتها فى صغيرها وكبيرها ، وفى فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبى المساواة ودعاة الديمقراطية . وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات فى السيارات العامة ، وقلّ منهم من يركب الدرجة الأولى فى القطار ، وقلّ من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى ، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح ، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لايؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا

بأى شىء فيهم ، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء ، فى مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة .

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها ، ولكن إذا وصل الأمر الى احتمال عدوى مرض ، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة ، أو آلم عيونهم منظر بغيض ، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية .

* * *

لوجرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس فى العالم ، فقد ربطت صلواته الخمس بالوضوء ، وفرض عليه الاستحمام فى أوقات ، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة .

وأغتبط إذ أسمع وصف « ابن سعيد » لمسلمى الأندلس فيقول : « إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

ويؤلمنى أشد الألم ماذكره ابن سعيد نفسه ، وقد زار القاهرة ، وركب منها حماراً الى الفسطاط يقول « فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابى ، وعانيت ما كرهت ، وقلت :

لقيت بمصر أشد البوار   ركوب الحمار وكحل الغبار

ألمّ من منظر الفسطاط ، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة ، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، ورأى الباعين يبيعون فى مسجد عمرو ، والناس يأكلون فيه ، ورأى فى زوايا المسجد العنكبوت ، قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ . . .

آلمنى هذا الوصف لمصر ، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره ، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة الى الفسطاط فى أرض معبدة ممهدة ، لاتثير غباراً ولا تدنس ثياباً ، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً ، لا يأكل فيه آكل ، ولا يكتب على حيطانه كاتب .

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسى فى مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس فى النظافة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك .

لست أدرى لِمَ لم يلتفت الدعاة الى هذا الأمر فى الأمة ، فيدعون ويلحون فى الدعوة الى النظافة ، ويضعون الخطط الدقيقة لها ، فانها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة ، فلا يأنف بعدُ مثقف أن يجلس مع غير المثقفين ، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين ، وفى هذا الاختلاط نشر للثقافة ، ودعوة للآداب العامة ، وغلبة للعنصر المهذب .

يظن الناس أن النظافة غالية ، وأنها مرتبطة بالغنى ، وهذا خطأ بين ، فكم من غنى قذر ، ومن فقير نظيف ، والأمر يتوقف على تعويد النظافة أكثر مما يتوقف على المال ، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس ، وأن تأكل أفخم الطعام ، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب ، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام .

هذه بديهيات أولية ، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها .

* * *

لعل الأمر فى العلماء والأدباء على نحو ما بينا فى الماديات ، فالذى يفرق بين عالم أرستقراطى وعالم ديمقراطى ، وأديب أرستقراطى وأديب ديمقراطى ، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم ، وعكس ذلك فى الآخرين — ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم ، ونظافة كتابتهم مهما اختلفت فى النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً ، ولكان الكل سواء . . ؟

أحمد أمين

كَلِمَة وكُلَيْمَة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

نحن من التَّنظير بين المدنيتين الأوربية والاسلامية ، كأننا بازاء جوادين أحدُهما مُخَلَّى له الطريق إلى غايته ، والآخر يُضْرَبُ وجهُه مرةً ويُصرف بالعوائق مرة ؛ ومع ذلك يُقابل بينهما فى السباق ! لو حكم الشرقُ أوربا لظهر جوادها حماراً . .

* * *

أربعة آلاف كلمة فى الثرثرة ، أقلُّ من أربع كلمات فى الحكمة

* * *

لاتغضبْ من حماقة امرأة تحبها ، ولا تغضبى من حماقة رجل تحبينه ، وإلا فأين تدسُّ الحياةُ سُمَّها إلا فى ألذ أطعمتها ؟

* * *

يموت الحيُّ شيئاً فشيئاً ؛ وحين لايبقى فيه ما يموت ، يقال مات . . .

* * *

قضت الحياة أن يكون النصر لمن يحتمل الضَّربات لا لمن يضربها .

* * *

غَلَب رجلٌ على امرأة كانت تهواه وجعل يباهى بما صنع ، فقلت له : ياهذا إن من السخرية أن تزعم انك تعبت فى فتح باب مفتوح . . .

* * *

حتى الأرادة ؛ هى فى الذكور مذكَّرة ، وفى الأناث مؤنثة ؛ فعند ما يغلب سحر الحقيقة التى فى الرجل على الحقيقة التى فى المرأة ، تلتمس المرأة إرادتها لتُعوذَ بها فلا تجدها إلا صورة . . فاذا امتنعت كانت فى صورة امتناع على استجابة ، وإذا غضبت كانت فى صورة غضب على رضى . ولهذا ما يكره بعضُهن الحجاب فانه يُذَكِّرهن تأنيث الارادة ويُبعدهن ويحذِّرهن ؛

ويا شؤمَ من إذا نجت من ذلك الخطر نجت كارهة . .

* * *

هناك حبٌّ يسمو ولا يزال يسمو ؛ إذ يكون المحبوب فيه مع المحب كالتَّرْجمان مع السائح ؛ ذلك حب بعض الشعراء لبعض الأجسام المترجمة .

* * *

تكون الأمانىُ مرةً كَسْبَ أفكارنا ومرةً لصوصية أفكارنا ! . . .

* * *

ينفر الأنسان من الكلمة التى تحكمه ، ولكنه فى الحب لا يبحث إلا عن الكلمة التى تحكمه .

* * *

من خُلقَ بطلاً فلا عجب أن توجدَ له الأقدار دائماً من كل ما حوله مادةَ حرب ، مائةٌ من مائة فى التوكل على الله تكون مائةً من مائة فى النجاح ؛ ولكن تسعة وتسعين من المائة فى التوكل لا تكون إلا خيبة محققة .

* * *

هل أستطيع أيتها الجميلةُ السوداءُ أن أقول فى وصف خديك إنهما فى حمرة الورد ؟ فلماذا تغضبين إذا قلت إنهما فى التماع الزيتون الأسود . . ؟ وأنت أيتها الحسناءُ المتكبرة السخيفة ! لماذا تغضبين إذا رأيت فى قلبك الزيتون ولم أر الورد ؟

* * *

فى بعض أحوال الحب ، تكون العواطف المحبةُ لك فى الباطن هى المعاديةَ لك فى الظاهر .

* * *

لا يسعد أحد بشعور غيره ؛ وطبيعىٌّ أن يكون هذا هو الذى يجعل السعادة ممكنة فى الناس ؛ ولكن العجيب أنه هو الذى يجعلها غير ممكنة ، إذلا يريد كل إنسان لنفسه إلا شعور غيره .

* * *

الناس يزاحمون فى الدنيا لأجسامهم ، فاما بؤسٌ وإما سعادة ، والحكماء والمحبون يزاحمون لأرواحهم ، فاما بؤسان وإما سعادتان

* * *

ما أظرفها كانت وأبلغها حين قالت لى : ألا تنظر ثانياً فتفهمَ ثالثاً . . ؟

***

يخيّل إلىّ والله أن قلب المرأة امرأةٌ معها ؛ فاما أن تأخذها نكبتين أو معونتين .

***

فلسفتى أن الكبرياء على المتكبرين هو أعلى التواضع .

***

مصادفة التّعس حظاً تحتاج فى اتفاقها إلى مصادفة تجىء بها

***

تستطيع أن تقول فى كل نابغة عظيم : إنه أذكى البلداء . . فان كذّبك الناس لم يكذبك هو .

***

المودّة القوية تتحمل العتابَ والمحاسبة لتثبت أنها قوية

***

الحب يُخرج من نفسك شخصاً غيرك ، والبغض يخرج من هذا الشخص غيره . فتحب بنفسين وتبغض بثلاث .

***

إن رضى المحب قال فى الحبيب أحسنَ ما يَعرف ، وما لا يعرف ؛ وإن غضب قال فيه أسوأ ما يعرف ، وما لا يعرف ، وما لا يمكن أن يعرف .

***

إذا رأيت كبراءَ قوم همُّهم عيشهم ؛ فاعلم أنها أمةٌ مأكولة . فلو شَهَرَتْ السيف الماضى لقاتَلَ بروح مِلْعقة . . ولو رَعَدَتْ بالأسطول الجبّار لَصَلْصَلَ كآنية المطبخ . . .

***

لم تعد التربيةُ فى كل أمة تربيةً للناس ولكن للمطامع ؛ فما يكبر جيلٌ إلا كبرت معه الحرب . . .

***

يراد من التجمُّل الصناعى حين تبالغ فيه المرأةُ أن يخفّ فيثقل ؛ ويراد من الجمال الطبيعى أن يخفّ فيزداد خفة . . .

***

من النساء مَن إذا رأيتها حسبتَ روحها زجاجةً مُلئت عطراً ؛ ومنهن من إذا رأيتها حسبت روحها زجاجةً ملئت زيت خروع . . . .

***

أول فلسفة الشريعة فى الزواج أنه حصرُ المعانى البهيمية من كل رجل وامرأة فى الرجل والمرأة بذاتيهما . فآخر فلسفة الشريعة فى الزواج أنه إذا عمّ وانتظم تراجعت بهيمية العالم فصغرت وصغرت حتى تكون كأنها فى اثنين فقط . . .

***

إذا سألت السياسى الداهيــة فسكت عن الجواب فقد قال لك قولاً . . .

***

من لا يملك على الأرض شيئاً يملك على الأقل أن يفرح وأن يحزن . . .

***

مات وأصبح كأن لم يوجد ، ومع ذلك فقد وجد ، ومع ذلك فكأن لم يوجد . إن خرج من هذا التركيب المنطقى معنى يثبت فى الفهم ، كان للحياة فى الفهم معنى ثابت . . .

***

أيا غاضباً من صُروف القضا بنفسك تَعْنُفُ لا بالقَدَرْ
ويا ضارباً صــخرةً بالعَصا ضربتَ العصا أم ضربتَ الحجر؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

الشيخ احمد مفتاح

يرجو عباس شاكر شكرى ببنى سويف حضرات الذين لديهم شئ من آثار المرحوم الشيخ احمد مفتاح أن يتفضلوا بإرساله اليه سواء أكان شعراً أم نثراً بعنوانه المذكور ، لدرجه فى كتاب تحت الطبع سيجمع فيه شعر الفقيد ونثره ، ولحضراتهم الشكر سلفاً ؟

صفحة من التاريخ

روح مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

دع من شاء يتغنى بفرنسا وما فى فرنسا ، ودع من شاء يتغنى بانجلترة وما فى انجلترة ؛ دع هؤلاء جميعاً يعنفون مصر وما فى مصر وينكرون ماضيها ، فما نحن منهم فى شىء . وليس فى الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا عفواً أو قصداً على كلمة لبعض هؤلاء ؛ حتى إذا مرت الساعة لم يبق من أثر لكلمتهم إلا كما يبقى من أثر قول الولد العاق فى نفوس أهله ، فان الحب يغلب الكراهة ، وسعة صدر الوالد لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة . ثم لن تكون إلا أعوام فتنضج العقول الفجة ، ويتسع الأفق الضيق ، ويغزر المحيط الضحل ، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها ، وإعطائها ما يجب لها من الاجلال .

وأما نحن فما بنا ولله الحمد غير مصر وحب مصر ، والاعجاب بها والاشفاق عليها : نعجب بما فيها من جليل ، ونشفق على ما بها من عليل أو ضعيف . ليس فى القلب نحوها موضع لغير عاطفتى الحب والاشفاق . هذه كلمة نفرج بها عن النفس مما تحسه ، إذ كثر فى هذه الأيام حديث الزراية بمصر من قوم لا نجد فى نفوسنا ميلاً إلا للدعاء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك وأكرم .

ولنعد إلى الماضى نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر ، لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبى ، ولو علا تلك الصفحة صدأ القدم ، أو غشاء الوهم .

لا حاجة بنا الى أن نعود إلى أيام الفراعنة ، أو إلى أيام مجد الدول الأسلامية التى كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوى ؛ بل نعود إلى أيام القرن الثامن عشر الذى يصفه بعض المؤرخين بالظلمة والأنحطاط ، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها ، وتعدوا فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى فى التسمية ، فلا يعرفونه إلا باسم « عصر المماليك » كأننا بهم يعيرون حكامه بأنهم كانوا فى أول أمرهم يُشترون بالمال . وإنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجد روح مصر خفياً ، بل نراه واضحاً مجلواً على عهده من الكرم والآباء :

لئن كان حكام مصر الأسبقون يُشترون فى أول حياتهم بالمال ، فقد كانوا رجالاً حماة طالما ذادوا عن حوض مصر ، وحموا ذمارها . ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويعتزون بها ، ويسمون أنفسهم منتسبين إليها ؛ فكانوا يعرفون أنفسهم باسم « الأمراء المصريون » وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم ونتجنب تلك التسمية الجائرة التى رددها من قبل أعداء مصر ظلماً منهم وعدوانا . فلقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلقها عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر لينزعوها من أيديهم ويحلوا محلهم فى حكم البلاد ، فكانوا يحاولون فى كل مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم ، بغية أن يفسدوا عليهم قلوب أهل مصر . ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم « المماليك » وأن ينعتوهم بأشنع النعوت ، ويتهموهم بأبشع التهم .

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى ، وأن ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة ، فما كانوا بأهل لذلك ، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التى تعاقبت على مصر فى مختلف العصور . فلقد تعاقب فى عهدهم حكم العدل والظلم ، واختلف فى زمانهم زهو النصر ، وذلة القهر — وأى عصر فى التاريخ قد خلا من مثل هذا التقلب والاختلاف ؟ وكان شعب مصر فى مدتهم يزن الدولة ، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة ، فاذا رأى الحسنة غالبة ، غفر السيئة فى سبيلها ، وهو فى ذلك مثل سائر الشعوب المتمدينة المستقرة ، لا تستخفه الحوادث الى العنف ضناً بالسلام والطمأنينة ؛

غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحياناً من الحكام من لا يستحق عطفه ولا إجلاله ، فكان عند ذلك يرفض الأعتداء بإباء العازم على عدم الاستكانة . وما أكثر الآيات الدالة على هذا لمن أراد النظر لنفسه ، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكارهين الكاشحين .

ولى أمر الحكم فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أميران من أضعف من ولى أمر الحكم فيها ، وهما مراد وإبراهيم . فكان حكمهما فى مصر أشبه شىء بالمرض يعترى جسم الشاب الناشىء ؛ وتهدم فى أيامهما ما بناه أكابر الأمراء السالفين قبلهم منذ أيام إبراهيم ورضوان ، ومن جاء بعدهما مثل على بك الكبير ومحمد بك

أبى الذهب . وشهد أهل مصر فى أيام هذين الحاكمين الضعيفين تغيراً فى نظام الحكم ونمط السياسة ، وأخذت شوكة الدولة تتجه نحو جوانب الناس تخزهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم ، وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم . فان الأمراء المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم ، وإذا اعتدى بعضهم فانما كان يعتدى على بعض ، وإذا غصبوا مالا أو سفكوا دما فانما كان الحزب الغالب منهم يغصب مال الحزب المغلوب ، ويسفك المنتصرون منهم دماء اتباع الحزب المخذول . وقديما تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة ، وما كان بأهل مصر بأس من ذلك ، إذ كانوا فى كل هذه الحركات بمعزل عن الأذى . دماؤهم محفوظة ، وأموالهم محرمة ، وأعراضهم مقدسة ؛ وأما منذ تولى أمر الحكم ابراهيم ومراد ، فقد تغيرت الحال ، وخرقت الحدود ، وإذا بجنود الدولة تعسف بالناس ، وتنتهك حرماتهم ، فلم يرضهم ذلك ، بل احتجوا وشكوا ، ثم تحركوا واضطربوا ، وكان اضطرابهم ذلك ، قبل أن يتحرك شعب فرنسا فى ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات .

قال صاحب « عجائب الآثار » فى حوادث سنة مائتين والف للهجرة : أى فى سنة الف وسبعمائة وخمس وثمانين للميلاد ما يأتى :

« وفى صبحه (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالى الحسينية بسبب ما حصل فى أمسه من حسين بك (تابع مراد بك) وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول . والتف عليهم جماعة من أوباش العامة والجعيدية ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم بالكلام وقال لهم : أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع وقفلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : (فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظان ، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفى كتخدا ابرهيم بك وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحالة ، وقالوا للشيخ : (أكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها من محل ما تكون) واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا ، وركب الشيخ فى صبحها الى ابرهيم بك وأرسل الى حسين بك فأحضره بالمجلس وكلمه فى ذلك . . »

ولم يقف الأمر عند حدود القاهرة ، بل اشترك أهل الأقاليم فى ذلك ، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا فى أيام مولد وليها المشهور السيد البدوى ، وكان الشيخ الدردير على رأس الحركة هذه المرة أيضاً .

قال صاحب تاريخ « عجائب الآثار » :

« فذهبوا (أى أهل طنطا) الى الشيخ الدردير ، وكان هناك بقصد الزيارة ، وشكوا اليه ما حل بهم ، فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب الى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة ، فلما وصل الى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر اليه والشيخ راكب على بغلته ، فكلمه ووبخه وقال له : (أنتم ما تخافون من الله) ففى أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت ، فلما عاين خدامه ضرب سيدهم هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم ، وقبضوا على السيد أحمد الصافى تابع الشيخ وضربوه عدة نبابيت ، وهاجت الناس على بعضهم ، ووقع النهب فى الخيم وفى البـلد ، فنهبت عدة دكاكين ، وأسرع الشيخ بالرجوع الى محله . . . ثم حضر كاشف المنوفية وهو من جماعة ابرهيم بك الكبير وحضر الى كاشف الغربية وأخذه وحضر به الى الشيخ ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان . . . ولما رجع الشيخ الدردير الى منزله حضر اليه ابرهيم بك الوالى وأخذ بخاطره أيضاً ، وكذلك ابراهيم بك الكبير ، وكتخدا الجاويشية . »

غير أن الحوادث السياسية التى وقعت فى ذلك الوقت حالت دون استمرار سعى أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم ، وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاقبة المفسدين فى زعمه . فانخدع أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسعى ظناً منهم أن السلطان كفيل لهم بازالة المظالم وإصلاح الأمور . وبقى جيش السلطان فى مصر قليلاً ، ثم دعته الدواعى الى مغادرة البلاد فعاد الأمر الى ما كان عليه من عبث مراد وأتباعه ، وعاد الناس

يفكرون فى الدفاع عن أنفسهم والتحرك لازالة العسف ، وأضحت مصر والجو فيها مكفهر ، والقلوب غير مستقرة ، والشعب متحفز ، وأهل الدولة فى وجل وترقب .

قال صاحب « عجائب الآثار » فى وصف هذه الأيام :

« وركب ابرهيم بك الكبير فى ذلك اليوم وذهب الى الشيخ البكرى وعيد عليه ، ثم الى الشيخ العروسى ، والشيخ الدردير ، وصار يحكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جداً ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف جداً . »

ثم أراد الله مرة أخرى أن يحول دون تمام تلك النهضة ، إذ لم تلبث البلاد أن شهدت طلائع الحملة الفرنسية ، فكان فى تلك الحملة المشئومة آخر قضاء على حركة مصر فى القرن الثامن عشر .

أمن الحق أن يقول قائل مع هذا إن أهل مصر ظلوا منذ القدم على الاستكانة والخضوع للمظالم ؟ . . .

محمد فريد أبو حديد

حركات الشـــباب

خواصها وأثرها فى بناء اوربا الجديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من أهم الظواهر التى يمتاز بها المجتمع الأوربى الجديد ، أن الشباب يقوم فى بنائه وتوجيهه بأعظم قسط ؛ وقد هلكت زهرة الشباب الأوربى القديم فى الحرب ، وخلفها شباب جديد حائر يتخبط فى غمار المتاعب والأزمات العديدة التى خلقتها الحرب ؛ ولكن الحركات والانقلابات السياسية العنيفة التى تمخض عنها العهد الجديد أفسحت للشباب مجالاً كبيراً للعمل ، وأسبغت عليه كثيراً من النفوذ والسلطان ، وخصته فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد بأعظم قسط . ويلاحظ أن هذا التطور قد بدأ فى أواخر الحرب ذاتها ؛ حيث قامت الثورة البلشفية فى روسيا وحطمت صرح المجتمع القديم كله ، ولبثت منذ قيامها تعمل بجد ومثابرة على خلق جيل جديد وشباب جديد يضطرم بالمبادىء والمثل الجديدة ويكون لها فى المستقبل عماداً وسياجاً ، ثم قامت الثورة الفاشستية فى إيطاليا بعد نهاية الحرب بأعوام قلائل ، وأدركت ما للشباب من أهمية فى بناء المستقبل ، فأقبلت عليه واجتهدت فى حشده وتنظيمه وتدريبه ، وطبعته بطابعها القوى فأصبح من طلائعها وجندها المخلصين ؛ وأخيراً قامت الثورة الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا (الثورة الهتلرية) وكان قوامها منذ البداية ذلك الشباب البائس الذى دفعته خيبة الأمل إلى أحضان التطرف وإلى لواء أولئك الذين يعدونه بالعمل ورفاهة العيش فى ظل دولة جديدة يكون الشباب فيها كل شىء ويستأثر بكل شىء ؛ وفى تركيا الكمالية يشغل الشباب فى المجتمع التركى الجديد أعظم مكانة ، ويعلق عليه زعماء الثورة الكمالية أعظم الآمال ؛ وقد حذت الثورة التركية حذو الثورة البلشفية والثورة الفاشستية فى حشد الشباب وتدريبه وطبعه بالمبادىء والمثل الجديدة ؛ وفى معظم الأمم الأوربية الأخرى مثل اسبانيا وفرنسا وبولونيا يجتمع الشباب حول المثل الجديدة ، ويحاول أن يشق طريقه إلى بناء دولة جديدة ومجتمع جديد يكون له فيهما ما يطمح إليه من السلطان والنفوذ . وحتى فى انكلترا التى عرف شعبها بالروية والاتزان إزاء الآراء والتطورات الجديدة يبدى الشباب الانكليزى ميلاً كبيراً إلى التطور ، ولا يأبى تأييد الشيوعية والفاشستية إلى حد ما .

ونلاحظ أيضاً أن الشباب أشد ما يكون تطوراً ونفوذاً فى بناء الدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى ظل حركات الطغيان ، كالبلشفية والفاشستية والوطنية الاشتراكية الألمانية . ذلك أن هذه النظم الطاغية تقوم على القوة والعنف وتحتاج أولاً إلى السواعد الفتية تؤازرها وتحقق لها ما شاءت من ضروب العنف والارهاب ، فاذا ما استقرت بفضل هذه السواعد القوية والأذهان الملتهبة الطامحة ، اضطرت أن تفسح لها مجال النشاط والعمل تحت اشرافها ووحيها ، وأن تولها من النفوذ والمكانة ما يحقق بعض أطماعها ، على أنها لا تقنع بحشد الشباب الناضج المكتمل ، لأنها لا تأمن تطوره وانقلابه ، فتعمد إلى الشباب الفتى تبث اليه تعاليمها ، وتدربه على أساليبها ؛ ولا تفر الأحداث والأطفال ، لأنها ترى فيهم أجيالاً متعاقبة من الشباب الذى ترى أن تخلد زعامتها على يده ؛ ولذلك نراها تخضع نظم التعليم والتربية لصولتها ، وتطارد حرية التفكير والرأى بكل ما وسعت من ضروب العنف

والشدة حتى لا تفضح مثلها ووسائلها ، وحتى لا يلقى الشباب الذى تستعبده وتذلله لغاياتها من النور والضياء ما يهديه إلى الحقيقة ويدفعه إلى تحطيم ذلك النير الوحشى الذى تضعه فى أعناقه. وتلجأ هذه الحكومات الطاغية دائماً إلى حشد الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، تحت أسماء وصفات مختلفة ، وتعنى عناية خاصة بتنمية الميول العسكرية والرياضية فى نفسه ، لتعوده أولاً على الطاعة العمياء ، ثم لتحكم قيادته وتوجيهه بواسطة رياسة متدرجة مباشرة ؛ وقد استطاعت الفاشستية الايطالية أن تحشد حولها بهذه الوسيلة ملايين الشباب والأحداث ، وحذت حذوها الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا فجندت الملايين باسم فرق الهجوم والحرس الأسمر ، وجيش العمل ، والشباب الهتلرى وغيرها . ويتخذ الطغيان ، الوطنية والغايات القومية ستاراً لهذه الحركات ؛ وقد يحقق بالفعل كثيراً من الغايات القومية المحلية أو القريبة المدى ، ولكنه يعمل دائماً بروح حزبى عميق ، ويؤثر المبادئ والغايات الحزبية على غيرها ، ويخضع الدولة لسلطان الحزبية ، كما فعلت الفاشستية فى إيطاليا والهتلرية فى ألمانيا .

وتثير حركات الشباب اليوم فى أوربا كثيراً من الاهتمام ، ولا سيما بعد أن أصبحت عماد انقلابات خطيرة فى نظم القارة ومجتمعاتها القديمة ، وأضحت عاملاً قوياً فى حياة أوربا السياسية . هل توجد بين حركات الشباب فى مختلف البلدان خواص مشتركة ؟ وما هى هذه الخواص المميزة وما علاقتها بالتطور الاجتماعى والسياسى فى كل بلد ؟ وهل تحفز الشباب فى جميع البلدان آمال وغايات مشتركة ؟ هذه الأسئلة وما إليها تثير كثيراً من البحث والجدل . وقد ظهرت فى الأعوام الأخيرة عدة كتب ومباحث هامة بأقلام جماعة من كبار الباحثين والساسة عن حركات الشباب الأوربية وخواصها وآثارها ، ومن أشهر هذه الدراسات وأحدثها كتاب بقلم الكاتب الفرنسى ايليا اربنبور عنوانه : « اليوم الثانى من أيام الخلق » Le deuxième jour de la création وفيه يدرس حركات الشباب فى روسيا السوفيتية ، ويستعرض خواصها وتطوراتها بطريقة روائيـــة ، وفى رأيه أن الشباب الروسى انما هو شعب جديد ، يفيض بمادة حديدة تستنفد اليوم فى مرحلة التوطيد الاشتراكى ، كل قواه بملء الحرية ؛ وأن المركسية (الشيوعية) قد انسابت الى دمه ، وأصبح يتذوق الأوضاع التى تقررها ، وأنها قد أسبغت عليه بالأخص صفتين : الأولى عاطفة التضامن البشرى الذى دعا اليه من قبل سولوسييف ، وتولستوى ، ودستويفسكى ؛ والثانية هى الثقة التى لاحد لها بالعقل والمنطق ومايترتب عليهما من الطموح المستمر الى النور ، واستعمال القوة المفكرة ، ونبذ الخرافات القديمة . ومن هذه الدراسات أيضاً كتاب الدكتور جريندل عن حركات الشباب الألمانى وعنوانه : « رسالة الجيل الفتى » Die Sendung der jungen Generation ، وقد ظهر قبل قيام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، ولكنه لايزال مرجعاً فى موضوعه .

ويصف الدكتور جريندل الشباب الألمانى بأنه « وطنى » يخاصم الشيوعية أشـــد الخصومة ، وأنه يطمح إلى إقامة « اشتراكية ألمانية » تضع حداً لمساوىء النظام الرأسمالى وتقضى على الشيوعيـــة أتم قضاء ، وتوفق بين مصالح جميع الطبقات والأفراد . ويمتاز الشباب الألمانى بصفة خاصة ، هى أنه يعتبر نفسه ذا قيمة فى نفسه ، ولا يكتفى بأن يعتبر ذخر المستقبل كما هو الشأن فى معظم الأمم ؛ فليس الشباب فى نظره حالة نضوج ينتهى عملها بعد حين ، ولكنها حالة نضوج تام تترك وراءها كل الأجيال السالفة والقادمة ، وهى ذات قيمة فى نفسها تتمتع بأعظم الخلال ؛ وإذا كان الشباب يتكون فى الأمم الأخرى على مثل الرجل الناضج ، فانه يرى فى ألمانيا أنه أتم نضوجاً وأوفر قيمة من الرجل الكامل . وليس أدل على ذلك من « حركة الشباب » الألمانية الشهيرة التى استطاعت أن تنشىء ثقافة شباب حق لها كل مميزاتها ، ولها مثلها الأعلى الخاص ؛ ومن المعروف أن الطموح الألمانى الى المثل الأعلى ، الذى غدا منذ الفيلسوف « كانت » ظاهرة الحياة العقلية الألمانية ، هو مصدر هذه النزعة التى تدفع الشباب الألمانى الى الامام ، فهو يتقدم فى سبيله لا يقعده شىء من الأعتبارات العملية التى تسحق الرجل الناضج ، وهو لا يعبأ بالمصاعب الخارجية ، بل يتحرى الغايات البعيدة دون النظر الى الحقائق ، وهذا الطموح الحر الى المثل الأعلى هو الذى خلق الشباب الألمانى .

هذا عن الدراسة الخاصة لحركات الشباب ، وقد صدرت

كتب وبحوث عديدة عن الفاشستية وأثرها فى تكوين الشباب الأيطالى . وهناك بحوث عامة عن حركات الشباب الأوربى ، منها كتاب لرنيه دبوى والكساندر مرك عنوانه « أوربا الفتاة » Juene Eurepe وكتاب لارنو دانديه عنوانه « الثورة المحتومة » La Révolution nécessaire وكلها تدور حول تنظيم أوربا الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، وحول تطور المجتمع الأوربى القديم ، وفشل الديموقراطية فى حشد الشباب ، وخصومة الشباب للنظم الرأسمالية والشيوعية معاً . وسر هذه النزعة نحو النظم الأقتصادية القائمة ، هو أن معظم شباب مابعد الحرب من أسر فقيرة ومتوسطة ؛ وهو يشعر أنه ضحية إغراق النظم الرأسمالية فى استثمار الطبقات العاملة ، ويشهد من جهة أخرى أخطار الشيوعية ووسائلها المخربة ، فهو يرغب عن النظامين ، ويطمح الى نوع من الاشتراكية المعتدلة ؛ وأحياناً يرى مثـــله الأعلى فى الفاشستية ، وأحياناً فى الاشتراكية الوطنية ؛ غير أن الفاشستية والاشتراكية الوطنية لم تتمخضا بعد عن مثل هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى ينشده الشباب . ومن الغريب أن هذه الحركات الطاغية قد استطاعت أن تستعبد هذا الشباب الطموح المتوثب أحيانا بالوعود الخلابة ، وأحياناً بالمنح المتواضعة فى ميدان الكسب والعمل ، ولكنها تعمد بنوع خاص الى كسبه بالملق ، فتصوره دائماً بأنه كل شىء فى حياة البلاد ، وأنه صاحب السلطان المطلق فى شئونها ، وتمنحه من أجل ذلك بعض المناصب الرئيسية ، ثم تسيره من ورائها وفق مشيئتها ، مصورة إياه بأنه هو الذى يقود نفسه بنفسه ، على يد زعمائه الشبان .

***

ومن الحق أن نقول إن هذه الحركات الطاغية — الفاشستية والوطنية الاشتراكية والكمالية — كان لها مع ذلك فى تكوين الشباب من بعض النواحى الخلقية والقومية آثار حسنة ، تدعو أحياناً الى الاعجاب ؛ فهى فضلاً عن العناية بتكوينه من الوجهة الرياضية والعسكرية ، والسهر بذلك على رعايته الجسمية والصحية ، تعنى عناية خاصة بصقل رجولته وتقوية خلاله ومبادئه الأخلاقية ، وتعويده على الحياة الخشنة العمليـــة ، وتدريبه على احتمال المشاق ، والاعتماد على النفس ، فهى تنشئه من هذه الناحية نشأة إسبارطية حسنة ؛ وأما من الوجهة القوميـــة فان لها كل الفضل فى جعله جندياً متحمساً من جنود الوطن ، فهى تحشده باسم الوطن أولاً ، وتذكى فى نفسه حب الوطن وكل مايتصل به ، تاريخه وماضيه ، ومدنيته ، وربوعه ، وخواصه ، ثم تبعث اليه حب المثل القومية التى تجيش بها الزعامة السياسية وتدخره لتحقيقها ، وتذكى فى نفسه العزة القوميـــة الى أقصى حدودها ؛ وتحميه من أخطار المبادىء الشيوعية والثورية الهدامة ، أو بعبارة أخرى تتخذه درعا لحمايتها منها . ولا يستطيع منصف أن ينكر ما لهذه التربية الأخلاقية والقومية من المزايا البديعة . على أن هذه الحركات تذهب أحيانا إلى حدود بعيدة ، وتركب متن الأغراق فى تصوير العواطف والغايات القومية ، ففى ألمانيا مثلا تبث الاشتراكية الوطنية فى نفوس الشباب نزعـة قومية مغرقة تذهب الى حد الأحقاد الجنسية ؛ وشعار الأشـتراكية الوطنية (الهتلرية) فى هذه الناحية أن الجنس الألمانى هو خير الأجناس البشرية ، وأنه يتفوق عليها جميعا بمواهبه وخواصه ، وتستتر الوطنية الاشتراكية وراء التفرقة بين الأجناس الآرية والسامية ، وتعلم الشباب والشعب الألمانى جميعاً أن الجنس الآرى (ويجب أن نقرأ دائماً الجنس الألمانى) هو أجدر الأجناس بأنشاء المدنيات ، وأن الشعوب السامية والأسيوية كلها شعوب هدامة للحضارة يجب أن تستعبد وأن تستغل لمصلحة المدنية الآرية والجنس الآرى ؛ وتنظر الشبيبة الألمانيـــة اليوم الى جميع أمم العالم من عل وتتوغل فى الأحلام المغرقة ؛ وكان من آثار هذه المبـادىء المغرقة التى تبثها زعامة محدثة متطرفة لا تتمتع بشىء من المواهب الممتازة أن وقعت تلك الحوادث والمناظر الدموية المثيرة فى ألمانيا باسم خصومة السامية ومطاردة اليهودية ؛ ومن الأسف أن هذه المبادىء المغرقة تهيمن اليوم على الثقافة الألمانية كلها . وقد شهدنا بأنفسنا آثار الفاشستية فى إيطاليا وآثار الثورة الكمالية فى تركيا ، فأما فى إيطاليا فان الفاشستية تغذى العاطفة القومية بقوة ، ولكن فى نوع من الرزانة وحسن التوجيه . وقد تحمل الشبيبة الأيطالية بعيدا فى كبريائها وأحلامها ، بل تذهب أحياناً إلى حد التعصب والخشونة . ولكنها لم تذهب قط الى تلك الحـدود المغرقة التى انتهت اليها الوطنية الأشتراكية فى ألمانيا . وتتجه الشبيبة الأيطاليا اليوم ببصرها الى ماضى إيطاليا المجيد ، الى مجد رومة ومجد القياصرة ، فتتصور بعث الدولة الرومانية بكثير من حدودها وأملاكها القديمة ، وتتجه

أيضا الى إحياء الفضائل والخلال الرومانية القديمة ؛ وهى اليوم أفضل مما كانت عليه بكثير من حيث الأخلاق والهمم والثقافة .

وأما فى تركيا فأن العاطفة القومية تبلغ بالشباب حد التعصب الأعمى ، ومع أن الشبيبة التركية لا تتمتع بدرجة محترمة من التعليم والثقافة ، فانها مع ذلك شديدة الكبرياء والغطرسة تتصور أنها سيدة الشباب فى العالم كله ، وأنها على حداثة عهدها بالمدنية الأوربية وضآلة ثقافتها تضارع أرقى شباب أوربا ذكاء وثقافة ومدنية ، وليس هذا بغريب فى بلد يدعى زعماؤه أنه هو مهد الحضارات البشرية ، وأن لغته (أى التركية) هى أصل اللغات البشرية ، ويحسبون أن ما أسبغ على تركيا الجمهورية فى أعوامها القلائل من قشور المدنية الأوربية يكفى لوضعها إلى جانب أعظم الأمم رقياً وحضارة .

***

هذا وأما عن حركات الشباب فى الأمم الأسلامية والعربية فلا نستطيع أن نبسط القول ، ومن الأسف أنه لم تنتظم فى أممنا الأسلامية والعربية حركات منظمة قوية من الشبيبة . نعم قام الشباب فى مصر وفى البلدان العربية بحركات متقطعة ، واشتركوا فى الحركات القومية ، وكان لهم فيها يوم قيامها أكبر الأثر . ولكن هذا العمل القومى لم يكن منظما ولا مستمرا ، ولم تدعمه من الناحية الأخرى تلك المزايا القومية والأخلاقية التى ننشدها . ومن الأسف أيضاً أن شباب الشرق يتأثر من آن لآخر بنزعات الشبيبة الأوربية ، فيحاول أن يقلدها تقليداً أعمى . مثال ذلك ما أذيع من أن شباب بعض البلدان العربية يحاول أن يقتبس من مبادىء الحركة الهتلرية ، مع أن الحركة الهتلرية هى من أشد الحركات الحديثة نزعة إلى الأستعمار ، وأبلغها عداوة للحرية ، وأشدها احتقارا للأمم الشرقية ؛ فمن الواجب على شبابنا أن يسترشد فى حركاته وأمانيه بالظروف المحلية والغايات القومية قبل كل شىء ، ومن الواجب أن يعمل ولكن فى روية واستنارة ؛ ومن الواجب أن يسترشد دائماً بمحن الوطن وماضيه المجيد فى تغذية العاطفة القومية ، وأن يكون شعاره العمل الرزين المنظم فى سبيل الأمانى القومية ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

النــــاى السحرية (١)

The Magic Flute

للأستاذ بشير الشريق المحامى

حين قدم موزار Mozart (١٧٥٦ — ١٧٩١) النــاى السحرية للجمهور لم تلق ما تستحق من نجاح . ويقال إن مدير الجوقة الموسيقية لأول مرة ظهرت فيها الناى السحرية ، وبعد أن هدأت عاصفة التهليل ، تسلل الى موزار وكان يشرف على الأخراج ، وقبل يده ؛ فربت موزار على رأسه . لنا أن نذهب من ذلك الى أن المدير قد فهم ماعنته الموسيقى ، وأن موزار أدرك أن المدير قد فهمها . كلاهما لم يستطع وضعها فى كلمات رواية غنائية libretto وهى فى الواقع لم تكن مثبتة فى كلمات ؛ وما كانت كلمات الرواية الغنائية لتحول دون إدراك المعانى الموسيقية لولم يتساءل النظارة عن معانى تلك الكلمات . لقد نجحت النــاى السحرية بعد موت موزار ؛ وسبب هــذا النجاح ولاشك أن النظارة لم يعودوا يتساءلون عن معانى كلمات الرواية libretto وأدركوا شيئاً من معانى الموسيقى .

كلمات الناى السحرية هى عناوين لموضوعات ضخمة ، ونحن نمر خلالها بسرعة الى موسيقى پاپاكينو Papageno الواضحة ، ولكنا سوف نضيع ذلك الوضوح إن نحن سعينا اليه عن طريق الكلمات أو نشدنا موضوع الرواية فى هذه الكلمات . إن حوادث الرواية ليس لها ارتباط بالكلمات بعضها ببعض ، كما أن منطق الرواية كله فى الموسيقى التى تخلق عالماً تقع فيه الحوادث عفواً ، عالما تصدر فيه النغمة عن أختها أو تنعكس عنها كما تنعكس قوى الطبيعة أو أفكار الرجل ؛ هذا العالم هو الكون كما يراه موزار ، والرواية بكاملها هى إيضاح لايمانه الخاص . وعلى هذا فهى بذاتها عمل دينى وان كانت سليمة مما نجده فى الدين من مسائل مبهمة وورع جبان . لقد عاش موزار فى هذا العالم

(١) للاديب الانجليزى كلاتون بروك A. Clutton-Broch عن كتابه : « مقالات فى الفن Essays On Art »

أشبه ما يكون بملك همه أن يضحك، ولكن بلا أذى ولا حقد، همه أن يضحك من شقاء بنى الانسان، وشر المصائب مايضحك. وكان يعطف حتى على الفجار «إنهم أطفال خبثاء يمكن لمن عنده سر السحر أن يجعل منهم أهل خير وصلاح» وفى الناى السحرية يعمل السحر، إنه يعمل فى الناى نفسها، وفى قيثار پاپا كينو. عند موزار سر الموسيقى، وقد بلغ من جهل العالم بحكمته أن حسبه مجرد شحاذ يعزف بأنغامه فى الشوارع؛ وبعد جيل أصبح الناس يذكرونه كلما ذكروا الأنغام، وأصبح الشعب ينظر اليه كما ينظر الى سوسن الحقل؛ ولا تزال الناى السحرية الى اليوم أكثر من رواية غنائية عادية ذات أنغام وأسلوب بسيط قديم، يمكنك أن تتمتع بها على كل حال اذا لم تقف إزاءها موقف المتهيب؛ يمكنك أن تنعم بها كما تنعم «بهملت» تلك الرواية الشجية؛ وهى مثل «هملت» تحوى معانى دقيقة بعيدة، معانى لاتدركها أفهامنا. إن پاپا كينو صورة مجازية؛ ولكنها من أعظم الصور فى جميع روايات العالم؛ إنه كل شخص كما كان «هملت»، واذا كنا نملك مهارة معرفة أنفسنا وجدنا فيه كلاً منا نفسه؛ وبكلمة أخرى أنه ذلك العامل المستولى علينا والذى نحبه فى أنفسنا ونحتقره فى الآخرين؛ إنه ذلك العامل الذى لا نعترف به للحظة، الآ وهو عامل الخوف والاعتزاز والكذب.

قدم موزار أغانيه لسارسترو Sarostro وپاپا كينو، حتى اذا أخذا فى الغناء أحسسنا كأنا نشاركهما غناءهما؛ وأى غناء؟! غناء ليس فوق مقدرة فهمنا ولا سرورنا؛ غناء الملاك الذى تعلم لساننا الأرضى وأدخل عليه الأصلاح فأقام بذلك سماء على الأرض؛ سماء لا تبعد عنا ولا تصعب علينا؛ سماء من غابة مقفرة نقدر فيها أن نضحك بقدر ما نقدر أن نغنى؛ سماء تضحك فيها الملائكة منا وتضحك معنا؛ وفى هذا الفردوس الذى خلقه لنا موزار سرعان ما يتحول جلال الموسيقى الى هزل، وسرعان ما تعود الموسيقى الى جلالها، وهذا التبدل يظهر دائماً طبيعياً

ذلك هو عقل موزار الذى رماه الشعب بالطيش لسبب واحد هو أنه وقد أوجد فى سمائه مكاناً لكل شىء لم يوجد مكاناً لمجد سليمان المتبذل، أو للعنف والبشاعة والبلادة، لا يوجد فى الفن أبداً ما هو أعمق أو أجمل من أصول موسيقى سارسترو. لقد بلغ من وضوح عقيدة موزار أنها تبدو وكأنها ليست بعقيدة وانما هى مجرد بهاء، مثلها فى ذلك مثل القديسين الحقيقيين الذين يبدو عليهم أنهم ليسوا من أهل الصلاح بل من أهل الفتون.

وهنالك من الناس من لا يجد فى جمال موزار فناً، وسبب ذلك أن جماله جمال حق. هم يحسبون أنه احتال على هذا الجمال احتيالاً؛ إنهم ينشدون صرير الجهود، وينشدون الأنانية؛ لقد بلغ من نقاء جهوده ومن كثرتها أن حسبوها رخيصة لا ترضى إلا العوام.

يصعب علينا أن نشاهد الناى السحرية تمثل تمثيلاً مرضياً على مسرح اليوم، ولكننا برغم ذلك سنسر ولا ريب من أى تمثيل لهذه الرواية التى حوت روح الموسيقى، والتى يمكن للمرء أن يرى منها كيف تكون الناى السحرية؛ لقد بلغ من رقة موسيقاها ورقة أنغامها أنها تقدر أن تجدد موسيقى هذه الأيام المسرحية الغربية.

يمكننا أن نصف تامينو Tamino وبانينا Panina كما نصف أحسن صور فى مجمع فنى، وأن نتخذ كلا منهما مثالاً لأبطال

الروايات الغنائية وبطلاتها في كل عصر ومصر ، بل قد لا تنتسب ثيابهما لعالم الحقيقة أو الفن ، وقد تعرض نماذج مصطنعة ومنمّقة ، ولكن الموسيقى تلطف من ذلك وتساعد كل شخص على أن يقوم بدوره أحسن قيام . من الواضح أن موسيقى الناى السحرية تجلب السرور وتوافق أولئك الذين ينشدونها فاذا بهم كأنهم يقومون بعمل دينى أكثر مما لو كانوا يقومون بعمل مسرحى ، وأنك أكثر ما تشعر بذلك عند انسجام الأنغام حيثما يتراءى لك أن ريح الفردوس تهب على جميع المغنين فيتمايلون لها تمايل الأزهار بالرغم من ثيابهم الكثيفة . ولكن الناى السحرية مفتقرة الى عالم متجانس فى النظر كما هو متجانس فى السمع حتى تظهر بمظهر كامل مرض ، ولهذا فنحن أحوج ما نكون لفترة إصلاح تتناول كل عاداتنا المسرحية ؛ نضرب لذلك مثلاً سارسترو ، إنه يعيش بين مناظر مصرية ، على حين أن هذا العالم المصرى لا يناسب الموسيقى وهو يعني لدينا أعاجيب القاعة Hall المصرية ، ولكن هنالك عالماً مفرداً يناسب الموسيقى كل المناسبة ، عالماً تستطيع أن تمر فيه من العبث الى الجمال مروراً طبيعياً ؛ وفيه تكاد تكون جميع الصور متناسبة وواضحة ، ذلك العالم هو العالم الصينى كما عرفناه فى الفن الصيني حيث يوجد فى هذا الفن الخيال الروحى والهزل البهى ؛ حيث يوجد فى هذا الفن مزيج من طفولة وقداسة يوحى الى العين ما توحيه موسيقى موزار الى الأذن ؛ وفى الفن الصيني فقط يقدر پاپاكينو أن يكون قديساً : فى ذلك العالم فقط تعيش روح مرزار بضحكتها وحكمتها ، وكأنها فى بيتها ؛ فى هذا العالم تساوت الأزهار وجميع الحيوانات فى الخطر مع جنس الانسان ، فى هذا العالم يظهر الافعى والثعبان وكأن كلاً منهما مصنوع من ورق مقوى ؛ فى هذا العالم لا يظهر السحر أنه مجرد تعاويذ ؛ فى هذا العالم يمكن للمرء أن يقع على مناظر طبيعية وصور جميلة ؛ وفيه لا يكون سارسترو ساحراً مسرحياً بل كاهنا كنسياً .

فى الحق أن الفن الصينى هو عالم الناى السحرية حيث تتدلى الأجراس الفضية من كل شجرة مزهرة ، وتزدحم الحدائق بالبلابل الساحرة ؛ هو عالم الحماسة والتأمل ، حيث يجلس الحكيم فى السرادق فى ضوء القمر ، ويبتسم ابتسام عاشق ، وحيث يبتسم المشاق كالحكماء . . حيث يوحى كل شيء للعين ما توحيه موسيقى موزار للأذن . وفى العالم الصينى يمكننا أن نتجنب كل تشدق فى الغزل الشهوانى اعتاد أن يلفظ به المسرح الحديث ؛ كما يمكننا أن نخضع أنانية أوربا الثقيلة للشرق المنكر لذاته .

لقد تمرّس موزار بالألم ، ولكنه لم ينغمس فيه ؛ إنه يعنى بجمال العالم أكثر مما يعنى بجمال نفسه ؛ عنده أن الشر من عمل الشياطين الذين تقدر الموسيقى على طرد أرواحهم

لقد كان موزار أورفيوس Orpheus هذا العالم الذى يستطيع إن نحن أصغينا اليه أن يذلل الحيوانية الكامنة فينا جميعاً ؛ ومع ذلك فان أقصى وقاره ومنتهى سر جماله إنما هو فى رحمته التى وسعت كل شيء ؛ وهو حين يترحم علينا أو على نفسه لا يأخذه البكاء ، بل يطلب الينا أن نجفف دموعنا وأن نكون من الصالحين ، وأن نصغى لنايه السحرية .

وهذا الحنان الذى ينبعث من أصواته خلال الناى السحرية يبعث فى الناى السحرية جمالاً وهزة وعجباً ، لا يمكن أن تبعثها أية عاطفة إنسانية .

سارسترو ليس بساحر ، إن هو إلا قسيس ، لأن فيه حكمة الرحمة المحببة ، ولأنه خصص مكاناً فى فردوسه لپاپاكينو ابن الطبيعة يلهو فيه مع صاحبته پاپاكينا . مرت پاپاكينو وهو فى فردوس سارسترو الوحش لحظة فكر فيها أن يشنق نفسه ، لأنه لم يجد من يشاطره الحب ، ولكنه لا يكاد يضع حبل المشنقة على عنقه حتى تسمع فى الموسيقى قهقهة تنبئك أنه يتململ من حبل المشنقة ؛ ولكن سرعان ما تقدم اليه پاپاكينا وسرعان ما يعود الى الفردوس أنسه ، ويأخذ الأثنان فى غناء دورهما فى نهاية الرواية .

نحن على يقين بأن عدالة الناى السحرية قضت ببراءة ملكة الليل ؛ والزنجى البشع وجميع معاونيه ؛ لم يعاقب منهم أحد ؛ لقد شقوا لغير ما سبب ؛ فجاءوا نادمين مستغفرين ؛ وهكذا تنتصر الناى السحرية على شرورهم وشقاواتهم ، فتدق الأجراس الفضية من كل شجرة ؛ وتغني البلابل غناء يخلب الألباب ، ويبتسم الحكماء والمحبون ابتسامة الأطفال ، فتدخل ابتساماتهم دخولاً طبيعياً فى دين موزار القدس ؛ هذا الدين المهيب الذى تآلف فيه الابتسام والعبوس ، ولم يتنافرا تنافرهما على الأرض .

شرق الأردن

بشير الشريقى
المحامي

خيال الشاعر

بين الطبع والصنعة

للأستاذ عبد العزيز البشري

لعل من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يتكىء أكثر ما يتكىء فى فنه على الخيال . أما العالم فوجهه كله إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قُرر لذاته . ولكنه يرتفع عن هذا الموضع إذا سيق لتوجيه بعض القضايا التى قد تدق على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذى نعالجه اليوم من هذا الطراز .

وبعد ، فاذا كان شعر الشاعر إنما يتكىء أكثر ما يتكىء على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما غلا ، ومهما حلّق وارتفع ، ومهما استحدث واخترع ، ومهما لوّن من الألوان وشكّل من الأشكال — فانه مُستمدٌ فى تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتدئ لا بد بها ، منتهٍ لامفرّ فى الغاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادته ، وهى مُستعارُه فى كل ما سوّى وفى كل ما صوّر وشكّل ولوّن .

وذلك بأن الانسان مهما رُزق من شدة العقل وأوتى من قوة الخيال ، لايستطيع أن يتصوّر شيئاً لم يقع عليه حِسُّه . وكيف له بهذا والحسُّ وحده هو السبيل لاسبيل غيره إلى إدراك الانسان ، وإلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يحيط به ويشهده فى مضطربه لا أكثر ؛ ودُنيا الانسان فى الواقع ، هى ما يرى وما يسمع ، وما يدرك من الحقائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمُ من طريق القراءة حاستى السمع والبصر . بل إن هذا الانسان نفسَه لو قد كُفّ من أول مولده فى محبِس لما قدّر أن دنياه شىء غير ما هو فيه ، وما يتصل من الأسباب بما هو فيه ، ولقد يعمد ذهنه إلى التقصى ، ولقد يتبسّط فى القياس ، ولقد يذهب فى إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد ، ولكنه فى النهاية لن يقع على جديد لا يتصل بمحيطه ، ولا يرتبط بأسبابه (١) .

***

لك الحق بعد هذا الكلام أن توجه هذا السؤال : إذا كان الخيال لا يمكن أن يعدو الواقع الذى يُدركه الحس . فما الفرق بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيلة الشعراء وبين حقائق العلماء ؟

لقد توجه ، بادئ الرأى ، هذا السؤال ، على أنك لو فكّرت وتدبرت لبان لك الفرق بينهما دون جُهد فى التفكير والتدبير : فالعالم إنما يطلب الحقيقة كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قررها مقرروها ، أو باستظهارها ، أو باستكشافها ، أو نحو ذلك من وسائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فانه يعمد إلى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تستوى له منها صورةٌ توائم فى قوتها وروعتها وتناسقها حظ مسوّيها من قوة التخييل ، وجودة الصنعة ، ودقة الذوق . والعكس فى العكس .

فقد بان لك أن الصورة المتخيَّلة مهما غلا فيها صاحبها وأطرف ، ومهما أبعَد بها عما طالعه الفكر ، فانها مشكَّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفقة من حقائق واقعة . ولست أصيب مثلاً لتوضيح هذا الكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلى (المستحيل الوقوعى) بقيام جبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزئبق . فذلك وإن كان غير واقع بالفعل ، إلا أنه مما يمكن إيقاعه فى الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجبل موجود والذهب موجود . والبحر كائن والزئبق كائن . وكل سعى الخيال فى تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجرم ، فيكون جَبَل الذهب ، ويكون بحر الزئبق .

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر فى الجملة ، مُعطٍ ، أما العالم ، فى الجملة ، فآخذ : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق ، والتلفيق بينها ، وإفراغها فى غير صورها ، وتلوينها بغير ألوانها . أما العالم فأبلغ جهده فى تلقى الحقائق . فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما

(١) سبق للكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماماً يسيراً فى بعض ما كتب من الرسائل

انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلي عليه من مكنون الأسرار .

***

ولقد علمت أن الشاعر إنما يتكىء فى فنه أكثر ما يتكىء على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثر النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلام الذى يجرى فى الحقائق المجردة ، وإن كان مقفى موزوناً . ولقد عرفت أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها ، وطبعها على غير صورها الواقعة . لهذا نفى الله تعالى أن يكون كتابه الحكيم شعراً ، ونفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَاهُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) . (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) يردُّ جلّ مجده بهذا وبغيره دعوى الكفار من أن القرآن شعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم بأنه سحر ، والسحر ما يوارى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) . (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) . إنما الكتاب كله حق وصدق ومنطق صحيح (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْءانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المُعْلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة .

***

ومن البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغاية كل الغاية أن تجلو عليك هذه الأخيلةُ صوراً طريفة بديعة لهذا الذى أدركتَه من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكه وتسويته ، ونحو هذا مما يُرهف الحسّ ، ويُمتع النفس بمطالعة صورة من صور الجمال الفني فى أى وضع من أوضاعه ، وعلى أى شكل من أشكاله .

ولاشك فى أن أبدع هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحسّ ، وأجملها موقعاً من النفس ، هى أدقها حبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتها التبست عليك بالحقيقة ، أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورهافة الحسّ ، ودقة الصياغة ، وبراعة الأداء .

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يحتاج عند الكثير الى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذب الشعر أكذبه . وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ماوقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع لرأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نعني بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدق فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفض عليك ما يعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء .

ولا يذهب عنك أننا نحن سوادَ الناس تعرض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعياننا أو لأذهاننا . وهذا الادراك لا يتعدى ظاهر الصور ، أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرة نافذة فى مطاوى كثير من الأشياء ، تُسلكها دقة حسه ، وهنا يتقدم خياله السرىّ فيسوّى منها صورة جميلة بارعة . فاذا واتته قدرة النظم ، فأداها كما أدركها ، وجلاها كما تمثلت له ، خرجت على حظ من الاحسان والاجمال يوائم حظه من قوة الخيال ، ودقة الذوق ، وحسن الأداء .

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، ويصقل حسك ، وقد يغمز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك مالم تكن تَشهد ، وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، وبعث عاطفتك فخلّقت فى عالم الروح كل محلّق ، وترقرقت فى سرحات الجمال كل مترَقرَق .

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، وإن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودقة صنعها تشبه عندك الصور الواقعة ؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لها فى نفسك هذا الأثر ، وهى نفسها قد تمثلت لأدراك الشاعر واضحة سوية ، فى غير تعسر ولا تعمل ، فنفضها فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه

الصناعة الشعرية :

ولست أعنى بالصناعة هنا إلا صناعة الخيال . فانه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربى إساءة بالغة ، فان الصنعة الخيالية لقدكانت فى الأساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفذ حسه إلى شىء . فيبعث خياله من مجثمه ، ويستكرهه استكراها على أن يصنع له صورة شعرية ؛ فيمشى متعثرا هاهنا وهاهنا فى الارتصاد لما عسى أن يسنح له من المعانى واقعة حيث وقعت . حتى إذا لاح له شبحها شكها ولو لم يتبين شخصها . ثم جعل يعالجها بالترويض والتذليل ، ويضيف اليها ما ظنه من جنسها ، أو ما حسبه مما يلابسها . ويطبع من هذه الأمشاج صورة شعرية (والسلام) ، صورة لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوقها ، ولا من يقرؤه شعر بالألف لها ، أو ذكا حسه بها .

وهذا الخيال المصنوع المتعمَّل المجهود به ليس من الشعر فى كثير ، وهـذا على أرفق تعبير . بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد فى بسائط المصنوعات . بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة ، تخفى معارف وجهها على ناظمها فكيف بقارئيه ؟ وعلى عينى أن أقول إن شيئاً من هذا يقع فى بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام ! .

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرغ من شأن القديم . وخبرنى بعيشك أى شىء هذا الذى ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل ! .

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خِدمتَه
لمَا رأيتَ عليها عِقـــد منتطق

وقول الآخر فى هذا الباب أيضاً .

لم تحكِ نائلكَ السحابُ وإنما
حُمَّت به فَصبيبُها الرُّحَضاء(١)

اللهم أفكان من السائغ فى العقل أو فى الذوق أو فى الخيال أن نظرة الشاعر للجوزاء تحيط بها دقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تمنطقت لتقوم على خدمة ممدوحه ؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثانى الشاعرين فى السحاب وهى تهمى ، لم تشعره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته ، فأخذتها الحمى ، فلم يكن ماتسَحّ به إلاّ من عَرَقها !

اللهم أشهد إن هذا وهذا كلام بارد مليخ ، وهذا وهذا من الخيال الفسْل السخيف ! .

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع فى قرض الشعر فى الجملة ، الى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيد الخيال تصيداً ويصنعه صنعاً ، ليجىء بنحو مايجىء به الشعراء ، وإما للرغبة فى شدة المبالغة ، والايفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيسفّ الشاعر ويسخف ، ويأتى بمثل هذا الهذيان الذى أتى به ذانك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح : والحمد لله الذى عفّ على كثير من هذا الأدب فى العصر الذى نعيش فيه

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زهير بن أبى سُلمىَ فى مدح هَرِم بن سنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غـلا فى ذلك أشد الغلوّ ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة .

قد أحدث المبتغون الخير من هَرِم
والسالكون الى أبوابه طُرُقا

من يلقَ يوماً على عَلاَّته هَرِما
يلق السماحة منه والنـــدى خُلُقا

وذلك لأن ممـدوحه كان جواداً حقاً ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقاً ، وهو الى هـذا شاعر فحل ، خصب الذهن سرىّ الخيال ، فلم يتعمل ولم يتعسف ، بل لقد انتضح شعره بالصورة التى جادت بها شاعريته فجاءت ، على إمعانها فى الغلو ، سائغة مسبوكة لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع .

* * *

ولقد عرض ذكر الذوق فى بعض هذا الحديث . وللذوق محله غير المنكور فى الشعر وفى غير الشعر . ولقد كان ينبغى أن نفصّل القول فيه بعض التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجىء هذا الى مقام آخر ؟

عبد العزيز البشرى

(١) يقال رحض المحموم : أخذته رُحَضاءُ الحمَّى ، وهى عَرَقها .

بين فني التاريخ وفن الحرب

١ ـ خالد بن الوليـــــد *
فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمى
رئيس أركان حرب الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

يعد خالد بن الوليد من أكبر قادة العرب فى عهد الفتوح الأولى ، وهو بلا منازع من أفذاذ الرجال الذين حالفهم النصر وأيدهم الظفر فى المعامع والحروب بلا استثناء .

ولم يذكر قط له التاريخ وقعة خسر فيها المعركة وهو قائدها ، حتى فى معركة موته التى وقعت فى السنة الثانية للهجرة فى شرق الأردن بين الطفيلة والكرك ، أنقذ خالد المسلمين ببطولته وإقدامه ، رغم تفوق الأعداء الأكيد وموت الذين تولوا القيادة على التعاقب عملاً بوصايا الرسول

وفى غزوة أحد كان خالد يقود خيالة قريش فبقى فى الميمنة يشاغل ربيئة المسلمين الموفدة لحماية الميسرة بالهجوم عليها من حين إلى آخر ، ويراقب سير القتال بين المسلمين وقريش إلى أن رأى ربيئة المسلمين تركت موضعها وسارعت للاشتراك فى الغنيمة . فهجم بخيالته ملتفاً وراء المسلمين وقاطعاً عليهم خط الرجعة ، فقلب نصر المسلمين إلى انكسار انتهى إلى انهزام المسلمين وجرح الرسول .

قلنا من الوقائع التى اشترك فيها خالد بن الوليد فى عهد إشراكه وإسلامه أن تلك الوقائع جميعاً انتهت إلى النصر المبين .

ومما لا شك فيه أن خالداً من أقدر قواد العرب على القيادة . فجدير بالضباط أن يدرسوا حركاته إن فى حروب الردة أو فى فتح العراق أو فتح سورية . ومن الواضح أنهم سيطلعون على الأسس القويمة التى كان يسير عليها ويرون فيها تنفيذ مبادئ الحرب التى لاتزال مرعية حتى يومنا هذا .

ولقد قال خالد قبل وفاته إنه شهد مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة . ولا نبالغ إذا قلنا إنه خرج من تلك الزحوف بأجمعها غالباً منصوراً .

١ — مصادر البحث :

من العسير جداً البحث فى أخبار الفتوح الأولى بحثاً يمكننا من الاطلاع على الخطط العسكرية والأسباب التى أدت إلى وضعها والنتائج التى أسفرت عنها الحركات . ذلك لأن القصاصين أو مدونى السير والمغازى أو مؤرخى الفتوح ليسوا من أبناء الجيل الفاتح ، فقد دونوا الأخبار بالسماع أو نقلاً بالأسناد . وقد نراهم غير متفقين فى تدوينهم الأخبار على التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما المعركة ، ولا على مقدار القوة التى اشتركت فيها ، ومن المعارك ما لم يتفق المؤرخون على زمن وقوعها . والحقيقة أن التاريخ العسكرى يثبت المعارك التى جرت قبل الميلاد بمقدماتها ونتائجها وتفاصيلها ، وقد يستخرج منها الباحث الأسس الحربية دون عناء .

فالمعارك التى نشبت بين الجيش المكدونى بقيادة الاسكندر والجيش الفارسي فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد تم تدوينها بصورة أقرب إلى الصحة من الوقائع التى نحن بصددها .

أما المعارك التى جرت بين الجيوش الرومانية وجيوش الأقوام المهاجرة ، والقتال الذى نشب بين القياصرة والقواد الطالبين بالعرش ، فأخبارها مفصلة فى كتب التاريخ إلى حد أن الباحث فيها لا يرى مشقة فى استقصاء الحوادث .

فمعركة (كانية) التى نشبت سنة ٢١٦ قبل الميلاد بين الجيش القرطاجى بقيادة هنبال والجيش الرومانى ، كانت ولا تزال مثالاً ينسج القادة العظام على منواله تعبئة الجيش فى ميدان المعركة ، وهى بلا منازع معركة نموذجية تتوق نفس كل قائد إلى تقليدها .

والسبب فى تدوين أخبار هذه المعارك تدويناً صحيحاً مع أنها نشبت قبل الفتوح العربية بعدة قرون ، هو أن المؤرخين الذين أثبتوا أخبارها إما أنهم اشتركوا فيها فعلاً ، وإما أنهم قادوها بأنفسهم ، وإما أنهم عاشوا فى زمن وقوعها . فالقائد زينوفون

* وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

اليونانى الذى قاد العشرة الآلاف من بلاد بابل إلى بلاد اليونان راجعاً بهم إلى بلاده سجل حوادث تلك الرجعة فى كتابه « الزحف » (أنا باسيس Anbasis) وهذا الكتاب لا يزال مرجعاً ثقة للباحثين العسكريين . وكذلك سجل يوليوس قيصر أخبار فتوحه فى بلاد جرمانية فى كتاب « الحروب الغالية » .

أما المؤرخون العرب الأولون فلم يدونوا أخبار الغزوات النبوية وحروب الردة والفتوح التى تمت فى النصف الأول من القرن الهجرى إلا بعد انقضاء جيلين على أقل تقدير .

وأول من جمع الوثائق الباحثة فى الغزوات والفتوح الأولى عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية . فكان عروة جمع تلك الوثائق فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان — أى بعد وفاة الرسول بستين سنة ، ودونها دون إسناد . ويلى عروة فى التدوين ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هجرية مقتبساً معلوماته من عروة . أما ابن هشام المؤرخ للسير النبوية فاستقى أخباره من ابن اسحق ، مع أنه توفى بعده بقرن ونصف قرن — أى سنة ٢١٣ هجرية . ويأتى بعده ابن سعد الواقدى الباحث فى حروب الردة والمدون للفتوح العربية فى العراق وفى سورية ، وتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، بعد أن عاش ٦٢ سنة . ويليه المؤرخ المشهور الطبرى وهو بلا منازع أول مؤرخ عربى أثبت الأخبار التاريخية بطريقة علمية

وتوفى سنة ٣١٠ هجرية بعد الفتوح العربية الأولى بقرنين ونصف قرن على أقل تقدير .

والحقيقة أن كتاب تاريخ الطبرى هو العمدة فى استقصاء أخبار الفتوح العربية وهو المرجع الأول والأخير . وهكذا يتضح لك أن رواة الفتوح أو مؤرخيها لم يشتركوا فى وقائع الفتوح أو أنهم لم يعاصروا أولئك الفاتحين ، بل إنهم دونوا أخبارها سماعاً أو نقلاً بعد مرور مدة غير يسيرة على الفتوح . وكان لزاماً أن تأتى الأخبار ناقصة ومشوشة ومتناقضة . حتى أمسى الباحث فيها لا يهتدى الى استنباط بعض الحقائق إلا بشق النفس . والذى يزيد البحث إشكالاً كثرة الرواة الذين استند اليهم المؤرخون فى تدوين الأخبار . وأنت تراهم يسخون برواية غثها ويبخلون بسمينها .

وثمة تناقض بين أخبار الرواة المنتمين الى الديوان الحجازى والرواة المنتمين الى الديوان العراقى . وكذلك نجد تناقضاً فى الروايات التى ينقلها المضرى والربيعى واليمانى والقيسى . لأن كلا من هؤلاء حاول أن ينسب مفخرة الوقعة إلى قبيلته وقد يكون غير مشترك فيها .

٢ — دار الحركات :

إن الساحة التى جرت فيها الحركات تمتد من سواحل البحر الأحمر فى الحجاز وتنتهى فى أرض الدهناء التى تفصل بين مقاطعة الحسا ومقاطعتى العارض والسدير ، وهذه الساحة تتناول شمالى الحجاز وجبل شمر وبلاد نجد .

والأرض التى تتكون منها هذه الساحة صحراوية الوصف على العموم ، والمياه فيها قليلة ، والغابات لا أثر لها فيها ، وتتخللها واحات نبتت فيها أشجار النخيل وبعض أشجار الفاكهة . وقد تكونت فى المنخفضات التى تنصرف اليها مياه الأمطار بسهولة حيث تكثر الآبار الضحلة ، وتقطع الوديان هذه الساحة ، وتكاد تبدأ جميعاً من هضبة نجد المرتفعة فتجرى فى جهات مختلفة ، ويصب بعضها فى البحر الأحمر والبعض الآخر فى خليج فارس أو فى جهة الربع الخالى . والوديان يابسة على العموم وهى ضيقة ووعرة عند اجتيازها المناطق الجبلية وعريضة سهلة عند مرورها بالبادية .

وينبت فى بعض أنحائها شجر الأثل والشوك والطلح وغير ذلك من الأشجار التى تتحمل العطش . وعند ما تنزل الأمطار تجرى اليها المياه من كل جانب فتغطى الوديان سيول المياه الجارفة الجارية بسرعة ، وتصب إما فى البحر وإما فى الأنفدة الرملية .

والجبال فى المنطقة التى جرت فيها الحركات قليلة . وهى لا تتعدى سلسلة طويق فى نجد تمتد من الشمال الى الجنوب فى جبلين متوازيين ، ويشرف الجبل الغربى على الأنفدة الغربية بين نجد والحجاز . ويشرف الجبل الشرقى على رمال الدهناء الواقعة بين خليج فارس ونجد . والسلسلة جرداء ، لا نبت فيها ولا ماء . وفى القسم الجنوبى من منطقة العارض يفصل وادى حنيفة هذين الجبلين أحدهما عن الآخر ، فيجرى أولا من الشمال الى الجنوب بعد أن تصب فيه عدة شعب من الشرق والغرب ، وفى جنوبى الرياض يغير مجراه الى الجنوب الشرقى فيصب فى رمال الأحقاف

وما عدا سلسلة طويق نجد سلسلتين أخريين فى منطقة جبل

شمر وهما جبل أجأ وجبل سلمى ، وهما موازيان يفصل أحدهما عن الآخر وادى العش . ويمتد كلا الجبلين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . وجبل أجأ باتصاله بالجبال المنفردة الواقعة فى جنوب غربيه يكون سلسلة طويلة تمتد الى حرة خيبر فى الحجاز .

والسلستان حجريتان ارتفاعهما من ٥٠٠ الى ١٨٠٠ متر . والجبال المتفرقة التى تتشعب من هاتين السلسلتين تحيط بها الكثبان الرملية . والبادية الواقعة بين الحجاز وسلسلة طويق متكونة من هضبة مرتفعة يتفاوت ارتفاعها من ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ متر ، ويكتنفها بعض الروابى الحجرية المنفردة . وهذه الهضبة تنفصل عن هضبة جبل شمر بوادى الرمة الذى يبدأ من حرة خيبر ، ويجرى من الغرب الى الشرق ، وبعد أن يسق بآبار منطقة القصيم الغنية يغير جهته الى الشمال الشرقى الى أن يصب فى أرض السواد بجوار البصرة .

والوادى هنا أخطر الوديان الواقعة فى دار الحركات ، وهو يفتح خطوط الحركات بين الحجاز ونجد . وعند ما تقطع الوديان وشعابها السلاسل الجبلية تكون العقبات المضائق والمنعطفات التى تنساب فيها الطرق .

والساحة مملوءة بالأنفدة الرملية ، والكثير منهـا يتجه من الشمال الى الجنوب ، أو من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، لذلك تعترض الوديان الطرق الممتدة من الغرب الى الشرق .

ومن جملة العوارض التى تتصف بهـا دار الحركات الحرات ، وهى الأراضى البركانية التى تكتنفها الحجارة الخامدة . وهـذه الحرات واقعة الى شرق الحجاز ، وأخطرها حرة خيبر الواقعة فى شمالى المدينة مسافة بضع مراحل .

والبقاع الآهلة بالسكان فى هذه الساحة هى الواحات فى بطن الوديان أو فى الأرض المنخفضة التى انصرفت الى بطنهـا مياه الأمطار ، وأخطرها واحة المدينـة فى وسط وادى الحمض ، ثم واحة بريدة وعنيزة فى وسط وادى الرمة . وواحات العارض الممتدة على طوار وادى حنيفة ، ثم واحات السدير وواحة خيبر وواحات جبل شمر .

وتمتد الطرق فى الوديان للاستفادة من المياه المتراكمة فيها فى زمن الأمطار من الآبار المحفورة على طوارها . وهذه الطرق تبدأ من المدينة ، ومنها مايتجه شمالاً ، فبعد أن يمر بخيبر يمتد الى وسط جبل شمر سالكاً السفوح الجنوبية لسلسلة أجأ ، ومنها مايتجه نحو الشمال الشرقى الى أن يهبط الى وادى الرمة فيسلكه حتى يصل الى واحات نجد الغنية . ولاسبيل الى السير على خارج الطرق لوعورة الأرض وندرة الماء فيها .

(يتبع) طه الهاشمى

٢ – الشريف الأدريسى

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضى

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

٧ — الادريسى يضع خريطته بناء على نظريته السابقة .

وبناء على نظرية الأدريسى التى شرحنـاها وضع خريطته العالمية هذه ، فهى تمثل القسم المعمور من الـكرة الأرضية وهو القسم الشمالى منها كما قدمنا . هذا القسم يشمل القارات الثلاث : أفريقية الشمالية فى الجهة اليمنى العليا (الجنوب الغربى) ، أوربا فى الجهة اليمنى السفلى (الشمال الغربى) يفصل بينهما بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، وآسيا فى النصف الشرقى تشمل جميع الجهة اليسرى . وأميركا طبعاً لم تـكن عرفت بعد ، وكذلك هذا التقسيم إلى القارات الثـلاث لم يكن معروفاً لدى العرب على الاطلاق ، وانما كانوا يقسمون الـكرة الأرضية إلى الأقاليم السبعة من الجنوب إلى الشمال ، ثم كل أقليم إلى عشرة أقسام من الغرب إلى الشرق ، وفوق هذا كانوا يقسمونها إلى الدول والممالك التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

٨ — الأقاليم السبعة وخطوط العرض .

والأقاليم السبعة كانت عند قدماء اليونان عبارة عن خطوط أفقية تبتدئ من خط الاستواء نحو الشمال وتحدد النقط التى تتم فيها زيادة النهار نصف ساعة على طوله فى المنطقة السابقة من جهة الجنوب ، ثم استعمل العرب الأقاليم وأرادوا منها المناطق التى تقع بين هذه الخطوط ، وتلك المناطق لم تكن متساوية عندهم . أما الادريسى فانه أراد من الأقاليم السبعة التى قسم خريطته إليها هذه المناطق التى كانت معروفة عند العرب ، ولـكنها عنده متساوية المقدار إذا استثنينا الأقليم الأول الذى يمتد إلى درجة ٢٣° شمال خط الاستواء ؛ فالأقاليم الستة الباقية يشمل كل منها ست درجات من درجات العرض ، وعليه فالأقليم الثانى من ٢٤° — ٢٩° ، والثالث من ٣٠° — ٣٥° ، والرابع من ٣٦° — ٤١° ، والخامس من ٤٢° — ٤٧° ، والسادس من ٤٨° — ٥٣° ، والسابع من ٥٤° — ٥٩° .

ولما كانت نظرية الأدريسى أن المسكون من جهة الشمال هو لغاية درجة ٦٣° فقط ، لأن المنطقة التى تقع بعد ذلك شديدة البرودة ومغمورة بالثلوج فهى غير صالحة للسكنى والعمران . لما كانت هذه نظريته أضاف إلى الأقليم السابع الذى ينتهى بدرجة ٥٩° أربع درجات أخرى من جهة الشمال من ٦٠° — ٦٣° وبذلك يتم الجزء المعمور من الأرض . ومما يذكر للأدريسى بالاعجاب والفخر أنه حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السـبعة إثبات درجات العرض وتحديدها ، وأنه أفلح فى محاولته هذه إلى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص فى الوقت الحديث يطأطئون الرأس له إعجاباً وتقديراً . ابتدأ الأدريسى باثبات درجات العرض من درجة ٢٨° إلى درجة ٦٣° على التوالى ، والدرجات التى أثبتهـا توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة فى جميع البحار وفى معظم اليابسة حيث توفرت لديه الأسباب وأمكنه إجراء المقاييس الصحيحة ؛ وفى بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم لديه الأسباب تختلف الدرجات التى أثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافاً بسيطاً . فمثلاً وضع الادريسى مدينة « كلمار » ببلاد السويد عند درجة ٥٦½° وهى تقع عند درجة ٥٦½° ، وجعل الدانيمرك ابتداء من ٥٤½° إلى ٥٨° والصحيح أنها من درجة ٥٤° إلى ٥٧½° ، وجعل انكلترا من ٥٢° — ٥٨° بدلاً من ٥٠° — ٥٨½° ، وهـذا طبعاً فرق بسيط فى جهات قليلة دعا إلى ارتكابه عدم توفر الأسباب كما قدمنا ، ولم تنقصه عناية الأدريسى ودقته . أضاف الأدريسى إلى القسم الشمالى من الـكرة الأرضية جزءاً بسيطاً من القسم الجنوبى إلى درجة ١٦° جنوب خط الاستواء ، هذا الجزء الذى تقع فيه منابع النيل ، وبين عليه منابع النيل بشكل واضح يدل على مقدار براعته العلمية ، ومد الساحل الشرقى لأفريقيا نحو الشرق وجعله حداً للمحيط الهندى من جهة الجنوب ، وطبعاً لم يلق هذا الجزء عناية الأدريسى لخلوه من السكان وعدم صلاحيته لذلك طبقاً لنظريته التى شرحناها . كذلك لم يثبت الأدريسى درجات العرض إلى درجة ٢٨° شمال خط الاستواء ، وانما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البـلاد التى تقع فى هذه المنطقة . ولما كانت هذه الأرقام لاتتطابق مع درجات العرض للبـلاد الموضوعة بجوارها وانما

تختلف عنها اختلافاً كبيراً فاننا نستطيع أن نفهم السر فى أن العلامة الأدريسى لم يثبت هنا درجات العرض متوالية كما فعل بعد تلك المنطقة ، بل اكتفى بوضع الأرقام التى وصلت إليه فى مواضعها كما أخبر بها .

٩ — التقسيم الثانى (تقسيم كل من الاقاليم السبعة الى عشرة أقسام) .

وبعد هذا قسم الأدريسى كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق ، فالأقاليم الأول يبتدىء من القسم الأول غرباً إلى العاشر شرقاً ، والثانى من الحادى عشر إلى العشرين ، وهكذا إلى الأقليم السابع الذى يبتدىء بالحادى والستين وينتهى بالسبعين . وعليه فأول الأقسام السبعين يوجد فى الجهة العليا من الغرب ، وآخرها فى الجهة السفلى من الشرق . بحث الأستاذ « ميللر » هذا التقسيم الثانى فتبين له كما ذكر أن الأدريسى لم يرد به إثبات درجات الطول ، وأن الباحث لخريطته والقارىء لكتابه نزهة المشتاق لايستطيع أخذ ذلك منهما ، فضلا عن أن هذا التقسيم يختلف اختلافا كبيرا عن درجات الطول . لهذا أريد أنا هنا أن أفرض أن الأدريسى اتخذ هذا التقسيم الثانى تسهيلا للقيام بالمهمة ورسم الخريطة لا غير .

١٠ — البحار السبعة .

وبعد هذا نريد أن نتكلم على البحار السبعة التى ضمنها الأدريسى خريطته ، وهى شىء آخر غير البحر المحيط أو بحر الظلمات الذى يحيط بالكرة الأرضية

(١) البحر الشامى أو الرومى (البحر الأبيض المتوسط) الذى يتفرع من بحر الظلمات الغربى ويمتد نحو الشرق .

(٢) خليج البندقية (بحر الأدرياتيك)

(٣) خليج النطاس (البحر الأسود) وهذان يتفرعان من بحر الروم .

(٤) البحر القزوينى أو بحر الخزر وهو بحر داخلى غير متصل بالمحيط الأعظم .

(٥) بحر الهند (المحيط الهندى) وهو يحتوى على ثلثمائة جزيرة يستمد ماءه من بحر الظلمات الشرقى .

(٦) البحر الفارسى .

(٧) بحر السويس أو بحر القلزم (البحر الأحمر) وكل من هذين يتفرع من بحر الهند .

١١ — الادريسى يسير فى وصفه للكرة الارضية بناء على التقسيم الثانى .

هذه البحار السبعة تخترق الأقاليم السبعة بحسب مواقعها ، ولقد وصفها الأدريسى وصفاً مسهباً دقيقاً ووصف جزرها والبلاد التى تقع عليها إلى غير ذلك فى كتابه نزهة المشتاق عند كلامه على الأقاليم السبعين التى شرحناها فى التقسيم الثانى . فانه اتخذ فى طريقة وصفه للكرة الأرضية أن ابتدأ بوصف القسم الأول من الأقليم الأول متدرجا نحو الشرق إلى العاشر ، ثم عاد الى القسم الأول من الأقليم الثانى متدرجا الى العشرين ، وهكذا سار فى طريقه الى أن تم الكلام على القسم الأخير من الكرة وهو القسم السبعون ، وعند كلامه عن كل قسم منها حدده وبين موقعه ، وتكلم عن مدنه وجباله وبحاره وأنهاره وعن كل ما يحتويه من ماء ويابس ، وعن الدول التى تشغله وعن سكانه وجنسياتهم وعاداتهم وعما يعيش فيه من حيوان وما ينبت فيه من نبات ، مبينا كثيرا من خواص ذلك ، طبيعية وطبية الى آخر ما ضمنه نزهة المشتاق من الشرح المسهب والملاحظات الدقيقة .

١٢ — مصير المائدة الفضية وأثر خريطة الادريسى الذى تركته فى علم الجغرافيا ورسم الخرط .

شرحنا كيف وضع الأدريسى خريطته وكيف ألف شرحها ،

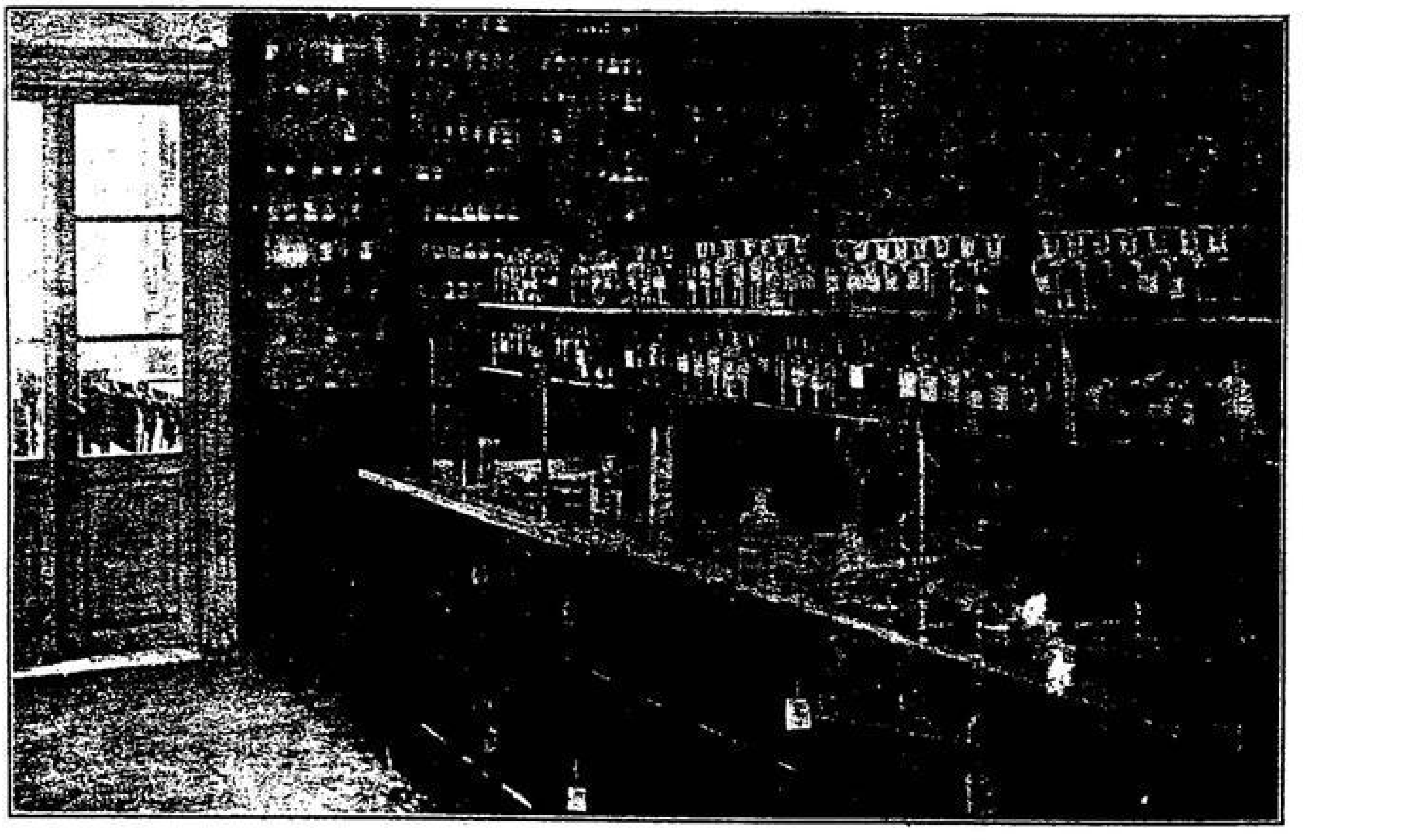
ولقد تم حفر المائدة الفضية ورسم الخريطة وتأليف الكتاب ونشرهما واختيار الأسماء لهما بأمر رجار الثانى فى يناير سنة ١١٥٤ كما سبقت الأشارة الى ذلك ، وبعد إتمام هذا العمل الجليل بستة أسابيع عاجلت المنية رجار الثانى ، ولكن ولله الحمد بعد أن استراح ضميره ووصل الى حل ما استعصى عليه السنين الطوال .

وبعد أن قدم للعالم والعلم على يد الأدريسى خدمة من أجل الخدمات فى التاريخ ، ولعله يشوق القراء الآن أن يعلموا مصير المائدة الفضية وماذا فعل الله بها وإن كان مصيرا يوجب الأسف ويثير العبرة ، ففى سنة ١١٦٠ ميلادية بعد وفاة رجار الثانى بست سنوات وفى عهد ابنه « فلهلم » هاجم الثوار القصر الملكى واقتحموه وكان أشنع أعمالهم التى لم تكن موجهة إلى الأسرة النورمانية فقط ، وإنما قد ارتكبت — علم الثوار أو لم يعلموا — ضد العلم والعالم أجمع . كان أشنع هذه الأعمال أنهم كسروا هذه المائدة واقتسموها فيما بينهم وما هى حقاً الا ثورة ، والثورات لا عقل لها ، تم هذا الجرم على مرأى ومسمع من الأدريسى الذى بذل مع مليكه من الجهد ما استغرق السنين الطوال وما كلفهما كثيراً من التضحيات ، حتى أبرزا عملهما القيم للوجود ، والذى كان يستطيع أكثر من غيره أن يقدر قيمة عملهما العلمى والفنى . لم يبق بعد هذا إلا خريطة الحائط وخريطة الكتاب الموزعة فى السبعين قطعة التى هى أقسام الأقاليم السبعين كما ذكرنا . انتشرت هذه الخريطة فى بعد أشد الانتشار وأعمه ، وتركت أثراً واضحاً فى المؤلفات والخرائط الجغرافية التالية لهذا العصر فى الشرق والغرب ، وظلت مع شرحها مئات السنين المرجع الوحيد لعلماء الجغرافيا من العرب والأفرنج ، ومعينهم الذى يستمدون منه معلوماتهم . ولقد ذكر الأستاذ ميللر بعض أسماء المؤلفات التى يظهر فيها أثر خريطة الأدريسى وكتابه بوضوح عند أول نظرة ، منها كتاب الجغرافيا لابن زيد المولود بغرناطة سنة ١٢١٤ والمتوفى بتونس سنة ١٢٧٤ ومنها خرائط مارينو زانوتو Marino Sanuto التى وضعها (بطرس فيسكونتى Potros Vesconte) فى سنة ١٣١٨ — ١٣٢٠ م . والتى انتشرت فى جميع أنحاء أوروبة . الى آخر ما عدد من أسماء المؤلفين والمؤلفات التى قد يكون لنا أن نكتفى منها بما ذكرنا .

(يتبع)

محمد عبد الله ماضى

مدارس النيـل بشبرا



جزء من معمل الكيمياء بمدرسة النيل الثانوية للبنين

في الأدب الدرامي

٨ ـ الرواية المسرحية

في الفن والتاريخ

بقلم أحمد حسن الزيات

تحليل موجز لأشهر المآسي

(فدر Phèdre) : موضوعها أسطورة من أساطير الأغريق في عهد الحروب الطروادية ، وأهم أشخاصها تيزيه بن ايجيه ملك أثينا ، وفدر امرأة تيزيه وبنت مينوس ، وهيبوليت بن تيزيه من انتيوب ملكة الأمازون ، وأريسي أميرة من أميرات أثينا ، وتيرامين مشير هيبوليت ، وأونون مرضعة فدر ونجيتها . وقد وقعت حوادثها في تريزين إحدى مدن (بيلوبونيز) وملخصها أن فدر امرأة تيزيه تبوح إلى مرضعتها (أونون) بهواها الدخيل وحبها المضمر لهيبوليت بن زوجها ، ويستفيض الخبر في الناس فجأة أن تيزيه قتل في أثناء رحلته ، فتهتبل هذه الفرصة فدر ، وتعلن إلى هيبوليت غرامها ، فيقابل إعلانها بالدهش والاباء ، ويظل مخلصاً لحبيبته أريس . ثم يعلمون أن الملك حي وأنه قدم المدينة ، فتيأس فدر من هيبوليت ، ويتسعر قلبها بالغيرة ، ويعضها الندم ووخز الضمير . فتخجل من لقاء الملك وتفر من وجهه ، وتظن أن هيبوليت سيفضي إلى أبيه بما كان منها فتترك أونون تؤلف المكيدة له ، وتدبر الوقيعة به ، فتتهمه عند أبيه بمراودة سيدتها عن نفسها فيثور ثائر الملك فينفي ابنه ، ويكله إلى غضب (نبتون) . ويستيقظ ضمير فدر ، فتنفجر باللعنة والعقوبة على مرضعتها الأثيمة ، ويرجع تيرامين فيقص على الملك في أسلوب بليغ مؤثر جموح الجوادين بمركبة هيبوليت ، وموته تلك الميتة الشنيعة . فيجزع الملك ، وتقوم الأدلة على براءة ابنه مما اقترف به ، فيتضاعف الحزن ويجل الخطب ، فيذهب إلى فدر يسألها جلية الأمر ، فتعترف له بخيانتها ، وقد كانت من قبل قد شربت سماً فيفعل في جسمها ، ولا تلبث أن تلفظ نفسها على المسرح .

مآسي فولتير

أشهر مآسي ڤولتير اثنتان وهما : (زيير) وميروب :

(زيير Zaïre) : موضوعها ذكرى من ذكريات الحروب الصليبية ، وقعت حادثتها لفتاة مسيحية أخذها أحد فرسان المسلمين في سبيه منذ طفولتها فرباها وأراد أن يتزوج منها ، ولكنها عرفت أباها وأخاها وهي على وشك الزفاف فأغرياها بالتنصر ، وهذه المأساة مكتوبة على مثال عطيل لشكسبير . أما أهم أشخاصها فهم : أورسمان وهو سوداني من سكان أورشليم وخطيب زيير ، ولوزينيان أحد أمراء أورشليم وابنته زيير وابنه نيرستان ، وثلاثتهم من أسرى صلاح الدين ، وشاتيليون فارس فرنسي ، وفاطمة جارية من جواري السوداني ، وقد وقعت هذه المأساة في أورشليم .

ففي الفصل الأول : تبوح زيير لفاطمة بسر زواجها المقبل من السوداني . فتذكرها الجارية أنها مسيحية . وكان نيرستان قبل ذلك قد نال الأذن من مولاه أورسمان أن يذهب إلى فرنسا ليأتي بالفداء له ولعشرة من الأسرى . فيعود ويطلب من أورسمان فك رقبة زيير وفاطمة وعشرة فرسان من الأسرى . فتفعل هذه الأريحية في نفس الأمير ، فيمنحه مائة أسير ليس فيهم زيير ولا لوزينيان .

وفي الفصل الثاني : تريد زيير أن تقضي نيرستان حق الشكر على مروءته وفضله ، فتحمل أورسمان على إطلاق سراح لوزينيان . فيتحرر هذا ، ولكنه يعرف ابنته زيير بصليب قد احتفظت به ، وابنه نيرستان بأثر جرح فيه . ويأخذه القيم القعد من الهم والحزن حين يعلم أن ابنته مسلمة ، ولكن زيير ترتمي في أحضان أبيها ، وتعده أن تتنصر .

وفي الفصل الثالث : يلتقي نيرستان أخته ، ويثني اليها لوزينيان أباها ، ويحضها على أن تعجل باعتناق النصرانية . فتوافقه على ذلك ، وتقسم له أنها لن تتزوج من أورسمان . ويأتي هذا بعد قليل يطلبها الى المسجد(1) ليعقد عليها ، فتستمهله ريثما تدبر وسيلة للهرب .

وفي الفصل الرابع : يمهلها أورسمان يوما للاستعداد للزواج . وفي غضون تلك المهلة يرسل نيرستان كتابا الى أخته ، يرشدها فيه الى طريق الهرب ، ويدلها على باب سري تنجو منه ، فيقع

(١) ليس من عادة المسلمين أن يحتفلوا بالزواج في المسجد كما يحتفل به المسيحيون في الكنيسة ، وإنما هذا قياس من فولتير ورطه فيه جهله بالعادات الأسلامية فأساء به الى شرط اللون المحلي أيضاً .

هذا الكتاب فى يد أورسمان ، فيظن أن نيرستان يزاحمه فى حب زيير وهو يحاول الفرار بها . فيعد الوسائل للقبض عليه .

الفصل الخامس : وفى جنح الليل البهيم تتسلل زيير الى المكان الذى دلها أخوها عليه ، وتناديه فلا يجيبها غير أورسمان بطعنة نجلاء بخنجره ، ويسحب نيرستان فى المسرح الى موضع الجثة ، فيصيح الأخ المنكود : واأختاه !! فيعرف أورسمان خطأه ، ويعتلج فى صدره الندم واليأس فينتحر .

يأخذون على هذه القطعة فقدان اللون المحلى منها فى دورى زيير وأورسمان . فقد يخيل الى من يسمع تلك العواطف التى أكنّاها وشرحاها ، أنهما من المختلفين الى أندية السمر الأوربى فى القرن الثامن عشر ، فضلا عن أنه جعل ذلك الأمير الكريم الحليم الوديع ينتقل فجأة الى جنون الغضب لرؤيته رسالة لم يتحقق ما فيها .

* * *

(**ميروب** Mirope) موضوعها استيلاء ايجسط بن ملك مسينا على العرش ، ومدارها على انتصار الحب . وأهم أشخاصها : ميروب أرملة كريسفونت ملك مسينا ، وولدهما إيجسط ، وبوليفونت قاتل الملك ، ونرباس خادم كريسفونت الخ . وقد وقعت حوادث هذه المأساة فى مسينا .

الفصل الأول : قبل خمسة عشر عاماً من ابتداء المأساة قُتل كريسفونت هو وولدان من أولاده فى ثورة . أما إيجسط ثالث بنيه فقد أنقذه من المذبحة نرباس خادم أبيه ، ونجا به فى بلد غريب ، وكان القاتل هو بوليفونت ؛ وقد استطاع أن يكتم سر الجريمة خمس عشرة سنة ، فيبدأ الفصل بتحريض احدى الوصيفات ميروب على المطالبة بحقها فى العرش ، وهى تتربص قدوم ولدها الغائب ، ولكن الشعب يصمم على انتخاب ملك ، ويفاضل الآن بينها وبين بوليفونت . ويوهم بوليفونت الشعب أنه المنتقم للملك ، فيفضلونه وينصبونه عليهم ملكاً . ويريد هو أن يجعل تملكه شرعياً فيحاول الاقتران بميروب فترفض وتطالب بحق ولدها ، فيرسل طغمة من السفاكين يبحثون عن ايجسط ليقتلوه .

الفصل الثانى : وفى أثناء ذلك يقدم الى المدينة شاب فيتهم بقتل ايجسط ويساق الى قصر الملك ، وتسمع بأمره ميروب فتشفق أن يكون ابنها فترغب فى أن تراه وتسأله هى بنفسها ، فيجيب الفتى على أسئلتها فى طهارة قلب وسلامة ضمير ، فتأبى أن تحكم عليه . ومع ذلك تستفيض الاشاعة فى الناس أن ايجسط قد قتل ، وأن قاتله هو ذلك الشاب الغريب . وأقوى الأدلة على حدوث القتل منه أن سلاح القتيل معه ، فيستولى الهم واليأس على الملكة .

الفصل الثالث : تعزم الملكة الرأى على قتل الشاب ، وتحرص على أن تقتله بيدها انتقاماً لولدها واطفاء لكبدها . وبينما هى ترفع يدها بالضربة القاضية عليه يقبل نرباس لحسن الحظ فى الوقت المناسب فيمنع الضربة ، ويفشى لها سر هذا الغريب ، ويخبرها أن القاتل الحقيقى لزوجها هو بوليفونت .

الفصل الرابع : يُدهش بوليفونت أن المتهم لايزال حياً يرزق ، ويرتاب فى أمر هذا الغلام ، ويرى ميروب مقبلة فيأمر حراسه أن يضربوا الساعة عنق هذا الغريب ، فيضيق ذرع ميروب وتعييها الحيلة ويغلبها الجزع ، فتصيح بالجند : ويحكم أيها البرابرة ، كفوا إنه ابنى !!

الفصل الخامس : يقبل بوليفونت أن يُبقى على الولد إذا رضيت أمه أن تكون له زوجة . ولا ترى الأم بدا من الخضوع لقاتل زوجها ابقاء على ولدها ، ويذهب الناس جميعاً الى الهيكل ليحتفلوا بعقد الزواج ، ويأخذ الناس فيما هم فيه ، ويتقدم إيجسط الى الهيكل يريد أن يقسم يمين الطاعة للملك ، فيأخذ مدية القربان ويطعن بها بوليفونت طعنة نجلاء فيصرعه ، ويهتف الشعب بعد تردد قليل للملكة وابن ملكه .

يأخذون على هذه القطعة الرائعة ، بعد الأمكان فى بعض الحوادث ، فيسألون كيف يقتل بوليفونت الملك ، ثم يسير بمنعه فى الناس خمسة عشر عاما بأنه المنتقم له ؟ وكيف يتهم الفتى القادم الى مسينا بقتل ايجسط وهو نفسه إيجسط ؟ ولماذا تريد ميروب أن تقتل بيدها هذا الغلام ؟ ! والجاذبية مع قوتها لم تسر نامية ، فان الخطر الذى حاق بايجسط ساعة أن همت أمه بقتله فى ختام الفصل الثالث أقوى من الخطر الذى يهدده فى الحل .

* * *

وكان فى النية أن أختار نماذج من مآسى شكسبير إلا أن ما اخترناه لغيره قد كثر حتى حبسنا طويلاً عن الموضوع ، فلنكتف بما شاع له فى مصر من ملخص ومترجم ، ولنأخذ فيما نحن بسبيله .

يتبع . **(الزيات)**

٢ - مصــــطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزى أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفى غالى

وفى ذلك الحين لم يكن يسمع فى موناستير سوى صفير الرصاص ودوى المدافع ، ولم يكن يرى فيها سوى جحافل الجيوش المتأهبة لمقاتلة اليونان الذين استولوا على كريد ، وكان الجو يضطرب باشاعة الحرب واقتراب ساعة الخطر على الأمبراطورية ، وأخذت نسور أوربا تتأهب للانقضاض على الجثة محاولاً كل منها أن يظفر بنصيب الأسد . أما فى داخل الأمبراطورية فهناك فقر مدقع ، وبؤس ملح ، وحكم فاسد ، واستبداد خانق ، أضحت معه حياة الأتراك حلماً مروعاً وكابوساً ثقيلاً ، إذ سلب السلطان عبد الحميد الأتراك أمنهم وحريتهم ، فنشر عيونه فى كل مكان ، وألقى بالأتراك فى أعماق السجون . فعم الذعر وساد القلق كل النــاس ، ونادى الشبان بالاصلاح ، واضطرمت النفوس بالثورة ، ولا سيما فى بلاد البلقان حيث يوجد مستودع البارود على وشك الاشتعال عاجلاً أو آجلاً

وكان الشاب مصطفى قد هضم كل الأفكار الحديثة الشائعة فى أوربا فى ذلك الحين وتشبع بها فخالطت لحمه ودمه ، فكان إذا تأمل حالة وطنه وما يقاسيه من ألوان العسف والارهاق غلى مرجل قلبه ، ومنى نفسه أن يكون على رأس ثورة تقتلع الاستبداد من أساسه ، ويكون هو بطلها البارز وسـيدها المطاع ، وهكذا تتجلى عظمة بطلنا فى حساسية نفسه الـكبيرة التى تأبى أن يطمئن له بال أو يهدأ له ضمير حتى يتحقق مثله الأعلى وغرضه الأسمى فى الحياة .

وفى أيام العطلة كان يذهب إلى سالونيك لزيارة أمه ، ولـكنه كان ينأى جهد استطاعته عن الحياة المنزلية ، وظل الصفاء بينهما حتى تزوجت ، فأنـكر عليها الزواج ولم يرتح إليه وصارحها بهذا ، فتشاجرا وحل بينهما بعض الجفاء .

وقد تعلم إبان اقامته فى سالونيك مبادئ اللغة الفرنسية بمعونة الرهبان الدومنيكان ، وتعرف إلى شاب يكبره قليلاً يدعى فتحى كان حيياً أنيس المحضر ، وكانا يقرآن معاً فى شغف شديد أدب روسو وفولتير وبعض الـكتاب الفرنسيين كما قرأ كتب استوارت مل وهبز فى الاقتصاد ، وكان بطلنا لا ينى عن حث الطلبة على انقاذ الوطن من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية كما كان يكتب وينظم القصائد النارية متغنياً بجمال الحرية ،

وصاحبه التوفيق فى مدرسة موناستير كما صاحبه من قبل فى مدرسة سالونيكا ، وكتب أساتذته عنه إنه « شاب متقد الذكاء عسير النفس تستحيل مخالطته » وبعد أن أتم دراسته أرسل إلى المدرسة الحربية بالآستانة برتبة ملازم ثان ، وهناك انغمس فى حياة الاثم والفجور من لعب القمار ومخالطة النساء ، ولم يعرف عنه أنه أحب إحداهن ذلك الحب الافلاطونى النبيل ، بل كان يقبل عليهن إقبال النحل على الزهرة يمتص رحيقها ويتركها ذاوية ذابلة ، وقد انصرف فجأة عن هذه الحياة وأقبل على عمله بجد ونشاط ، ووفق فيه توفيقاً بالغاً يعزى قبل كل شىء إلى تعويله على نفسه واعتماده على مجهوده ، وقد جاز كل امتحاناته بتفوق باهر ، ورقى إلى رتبة كبتن سنة ١٩٠٥ ، وكان يمزج السياسة بعمله دائماً ، وقد ألفى نفسه فى الآستانة بين ضباط صغار يقاربونه فى السن ويضطرمون بالثورة على استبداد الخليفة وتدخل الدول الأجنبية . وكان أساتذتهم بالمدرسة يعطفون عليهم ويتغاضون عما يفعلون ، ولـكن لا يجرؤون على قيادتهم ومظاهرتهم .

وكان لهؤلاء الضباط بالمدرسة جمعية تدعى جمعية الوطن تلقى الخطب وتذيع النشرات مهاجمة فيها نظام الحكم وأخلاق الموظفين واستبداد الخليفة ورياء رجال الدين ، بل لم يخل الدين نفسه من مطاعنها لحيلولته - كما كانوا يعتقدون - دون التقدم والارتقاء ، فضلاً عن فساد النظم المؤسسة عليه ، وقد تعاهد أعضاؤها على تقويض حكومة الخليفــة واستبدالها بحكومة دستورية ، وإنقاذ الناس من كابوس رجال الدين ، وتحرير المرأة من عبوديتها . والواقع أن تركيا فى ذلك الحين كانت تحتضر ، وما كانت الحياة لتعود اليها إلا إذا لقحت بدم نقى جديد ، وقد انخرط الشاب مصطفى فى سلك أعضائها ، وأخذ يكتب فى نشرتها مقالات نارية وشعراً ملتهباً ، ويلقى فى اجتماعاتها خطباً لاذعة ، ولـكن السلطان

(*) أنظر العدد ٦١ من الرسالة

عبد الحميد لم تكن لتخفى عليه خافية ، فعلم بأمر الجمعية من جواسيسه المنبثين فى كل مكان ، وجزع جزعاً شديداً إذ رأى فيها نواة عمل سينتهى بثل عرشه . فخاطب أحد أعوانه المدعو اسماعيل حقى ، وتحدث هذا بشأنها الى ناظر المدرسة الحربية بالاستانة ، فحرم الناظر عقد اجتماعاتها ، ولكن لم يفت هذا فى عضد أعضائها الثائرين ، فأخذوا يعقدون اجتماعاتها فى الخارج ، وأضحت احدى تلك الجمعيات السرية المنتشرة فى الاستانة تعمل على هدم الظلم ومحو آثاره .

وبعد أن جاز مصطفى الامتحان بمدرسة الاستانة استأجر غرفة لتكون مكتباً للجمعية تطبع فيه نشراتها ، وكان الأعضاء يجتمعون فى منازل خاصة يأتون اليها خفية يترقبون ، وقد ارتاح بطلنا الى هذه الحياة لتأصل حب المغامرة فى نفسه واستقراره فى طبعه ، وأخذ يتعلم أساليب الجمعيات الثورية ونظمها ، ولكن عيون عبد الحميد لم تأل جهداً فى مراقبة هذه الجمعية وتضييق الخناق عليها ليفاجئوا الأعضاء متلبسين بالجريمة ، ولم يكن هذا بالعسير عليهم ، إذ كان الأعضاء ينقصهم الدراية بأساليب هذه الجمعيات ، وإن لم تعوزهم الحماسة والشجاعة .

واستطاع أحد الجواسيس أن يتسلل الى الجمعية ويتصل بها ، وازدادت على توالى الأيام ثقة الأعضاء به واعتمادهم عليه ، فتمت خديعته لهم وجازت حيلته عليهم ؛ وبينما هم يقسمون قسم الجمعية فى يوم من الأيام إذا برجال البوليس السرى يفاجئونهم ويقبضون عليهم ، فزج مصطفى وسائر الأعضاء فى السجن الأحمر بالاستانة ، وكان بطلنا من بينهم مثار الريب والمخاوف ، واعتبر فى عداد الخطرين على النظم القائمة ، فعزل عن زملائه فى مكان قصى ، وتراءى له المستقبل مظلماً قاتماً ، إذ لو بدا لعبد الحميد أنه نذير خطر عليه لاختفى من الحياة كما اختفى أمثاله من قبل كوميض البرق .

وقد راع الأم الحنون مصير ابنها ، فأسرعت يحدوها الأمل والخوف لزيارته ، فأبوا عليها ذلك ولم يسمحوا لها إلا بارسال بعض النقود اليه ، ومضت على حاله هذه أسابيع نقل بعدها الى « زنزانة » ضيقة مظلمة قذرة لاينفذ اليه فيها إلا قبس ضئيل من النور من كوة صغيرة ، فأثر هذا السجن الموحش فى نفسه أبلغ تأثير ، وزاد خلقه غلظة ووحشية .

وفى يوم من الأيام اقتيد من غير انذار الى مكتب رجل من رجال العهد القديم ومن أنصار عبد الحميد القربين هو اسماعيل حقى باشا ، فأخذ الرجل يديم النظر فى ملامحه ، ثم قال له : «لقد أظهرت مقدرة فائقة وكفاءة ممتازة ، وأمامك مستقبل باهر ينتظرك فى خدمة صاحب الجلالة ، ولكنك من جهة أخرى شنت نفسك ولوثت شرفك الحربى ، فخالطت أسوأ الخلان ، وأخذتم تقامرون وتشربون وتختلفون الى الأمكنة الموبوءة ، وأشنع من هذا وأشد نكراً أنك نكثت عهد الاخلاص لمليكك ، فزججت بنفسك فى موج السياسة ، وظاهرت الدعاية الخائنة ضده ، وحرضت زملاءك على احتذاء مثالك ، والاقتداء بك ، ولكن جلالة الخليفة قد وسعتك برحمته وشملتك رعايته ومغفرته إذ رآك شاباً أحمق ، لعلك قد انقدت لهواك من غير تبصر أو تقدير للعواقب ، فاختارك للذهاب مع فرقة الفرسان الى دمشق ، ويتوقف مستقبلك على مايعلم من مسلكك ، ولكن عليك أن تتجنب هذا الحمق وتتوفر على أداء واجباتك الجندية ، وخذ لنفسك الحذر فانك لن تحظى بفرصة أخرى » .

وفى نفس الليلة رحل فى سفينة إلى سوريا بدون أن يسمح له برؤية أمه أو أصدقائه ، وبلغ بيروت بعد سفر شاق ، فامتطى جواده وعبر به جبال لبنان حتى انضم إلى الفرقة فى دمشق فوجدها تتأهب للزحف على الدروز المقيمين بجنوب دمشق والذين كانوا دائمى الثورة على الدولة العلية ، وقد كانت هذه الغزوة أول تجربة لنشاطه ، ولكنها لم تكن ترضى الجندى النظامى إذ كانت بلاد الدروز عبارة عن جبال مجدبة تتقاطع مع وديان ضيقة عميقة لاماء فيها ولا طريق معبد ، وكان الدروز قوماً أقوياء الشكيمة صعاب المراس دارسين كل شبر من أرضهم ، ومضت الأيام بين الفريقين فى كفاح غير مثمر ، إذ لم يستطع الأتراك الظفر بأعدائهم ، فأحرقوا قراهم ودمروا حقولهم وعادوا القهقرى إلى دمشق لهجوم فصل الشتاء ببرده القارس وجوه المكفهر المظلم ، وهناك أخذ بطلنا الثائر يعد العدة لانشاء فرع لجمعية الوطن ، ولم تغير الأيام السود التى قضاها فى سجن الأستانة منه شيئاً ، ولم تضعف نفسه القوية ، ولم تلن قناته الصلبة ، ولم ترد قلبه الكبير عن غرضه ، إذ كان مصطفى ثائراً على كل شىء : على الدين والناس والنظم

والتقاليد ، ولم يكن لشيء ما فى نفسه حرمة أو قداسة ، ولكنه كان يجمع إلى حماسة الشباب حذر الشيوخ ونظرهم البعيد ، وكان قد هجر الأدب لما وجده مدعاة للشك ، ومنبتة للتردد موجباً للخطأ لما بين الحكمة النظرية والحكمة العملية من تناقض ، وأقبل على درس أساليب الثورة ووسائلها ، وقد وجد التربة صالحة للبذر . فصغار الضباط مضطرمون بالسخط ، ورؤساؤهم يعطفون عليهم ويميلون اليهم ، وقد وجد مصطفى من بينهم زميلاً قديماً له ، فاتخذ منه نصيراً ومعيناً له فى عمله ، وسرعان ما اشتد ساعد الجمعية وتكاثر عدد أعضائها ، وأخذ بطلنا يشعر بمكانته وخطره ، ولكن سرعان مافطن الى خطئه وعاد الى صوابه ، فعلم أن أهل البلاد ليسوا متهيئين لقبول دعوته ، وإن كان ضباط الحامية التركية متأهبين لتلبيتها وإبرازها الى حيز العمل .

وقد أرسل اليه أصدقاؤه يخبرونه بأن البلقان هى مهد الفتن والقلاقل ، وأن عليه أن يسعى لنقله الى سالونيك ليضمن نجاح حركته وانتشار دعوته ، فاعتزم تنفيذ ما أشاروا به عليه ، سواء أجابته الحكومة الى طلبه أم أبته عليه ، وكان صاحب شرطة يافا عضواً بجمعية الوطن ، فاتفق معه على كتمان وجهته ، وحصل على أجازة بضعة أيام رحل فى خلالها الى يافا وأبدل اسمه واتخذ له لباساً مستعاراً ، فاستطاع أن يعبر البحر منها الى أثينا ، ثم الى سالونيك حيث ألفى السخط والقلق يساوران كل النفوس ، وهناك اعتكف فى منزل أمه ، ووجد أن الجو صالحاً لابلاغ رسالته ، إذ كانت سالونيك قلب الحركة ومهد الثورة ، فأخذ يتعرف بمعونة أمه وأخته الى صغار الضباط من زملائه القدماء ، وطلب نقله الى سالونيك ليتسنى له الاشراف على تنفيذ خطته ، ولكنه قبل أن يخطو خطوة أخرى صدرت من الأستانة الأوامر بالقبض عليه ، فعمل حكمدار سالونيك على خلاصه ، فنبهه الى الخطر المحدق به وأخبره أن أمر القبض سينفذ بعد يومين ، وعليه أن يتأهب للرحيل ، فعاد مصطفى بطريق البحر الى يافا ، وكانت أوامر القبض عليه قد سبقته اليها ، ولكن لحسن طالعه قيض الله له كبير الشرطة فى يافا ، وكان عضوا بجمعية الوطن ، فمهد له سبيل الفرار الى غزة ، وأراد أن يحكم الحيلة لتجوز على حكومة الأستانة ، فكتب اليها يطلب أن تزوده بتعليمات أوضح وأدق عن مصطفى كمال ، ويقول إن ما وصل اليه منها فيه كثير من الخطأ ، لأن مصطفى كمال كان طوال المدة السابقة مقيما فى غزة ، ولم يبرحها الى سالونيك ، وصادق على كلامه مفيد لطفى الضابط بغزة .

وهنا تظهر حكمة بطلنا ونظره البعيد . فقد رأى أنه لو وقع فى يد عيون الخليفة مرة أخرى ، لما رأى نور الحياة بعد ذلك لحظة واحدة ، فاعتزل الحياة العامة زهاء عام ، ليزيل ما أحاط به من ريب وشكوك ، وأقبل على عمله بجد ونشاط ، حتى لفت أنظار رؤسائه اليه ، فأعجبوا به وأثنوا عليه قائلين . إنه لا يعنى بغير واجبه ، وهو يؤديه على أكمل وجه ، وأتم شكل ، فأحسنت به حكومة الأستانة الظن ، ورجحت أن جواسيس سالونيك قد ظلموه باعتباره فى عداد الخطرين ، ولكن خيال سالونيك لم يبرح رأس بطلنا ، وأنى له ذلك وفيها نذير الثورة التى يريد مصطفى أن يكون بطلها الذى يشار اليه بالبنان ، وبينما هو غارق فى تفكيره وتدبيره إذا به يتسلم أمر النقل الى سالونيك وهو يكاد أن يكون له من المكذبين ؟!

يتبع — حنفى غالى

إلى النهر الغاضب

للأستاذ محمود الخفيف

غضبتَ فسهدتَ أجفانها ... وزاد هياجك أحزانها
وقد أنستْك لطيف الأناة ... ضحوكَ الأسرّة فتانها
جميل الوفاء شهي الصفاء ... عريق السماحة هتانها
وفاؤك عيد يعم البلاد ... ويغمر بالخير أركانها
تهز الحقول على جانبيك ... ويملأ فيضُك غدرانها
وتذكر مصرُ إذا ما خطرت ... وسال نضارُك ، سودانها
فأنت لمصر وريد الحياة ... ولم تر غيرك شريانها
حليم عليك سماة الجلال ... تقابل بالبشر قربانها
وتلقى برفقك في المهرجان ... وجوه البلاد وأعيانها
تود الرياض على شاطئيك ... لو انك تسمع شكرانها
وتهفو الخمائل شوقاً إليك ... فتنشر حولك أغصانها
تردد مصر أناشيدها ... وتبدأ باسمك ألحانها
ويطربها منك حلو الخرير ... فترهف للسمع آذانها
فتلقى إليها حديث القرون ... وتحفز للمجد غلمانها
ومانسيت مصر هذا الحديث ... ولا صرفت عنه تحنانها

***

تجهم وجهك بعد الصفاء ... وروع بأسك سكانها
لبست الجفاء على غرة ... فآلم غدرك وجدانها
تركت الكنانة في غمرة ... يهدد سيلك بلدانها
كأنك جيش تخطى الحدود ... وأنذر بالموت قطانها
تقيم السدود على ضفتيك ... وتحشد حولك فتيانها
تراقب موجك في حسرة ... تجدد للنفس أشجانها
ولم أر مثل جفاء القلوب ... تفيأت من قبل رضوانها
ولا كالأساءة من راحة ... تعود كفُّك إحسانها

***

ترفق بمصر فقد نالها ... خطوب تزلزل بنيانها
توالت عليها عجاف السنين ... وأعمى التنابذُ رُعيانها
وذاق بنوها بأوطانهم ... صنوف العذاب وألوانها
ألم تر كيف دهاها الكساد ... وكاد يدمر عمرانها
وكيف توقف فيها النماء ... وأخرجت الأرض ديدانها
فأضحى فتاها كسير الجناح ... كئيب الملامح خزيانها
وجاس الغريب خلال الديار ... قوى المخالب يقظانها
ألم يكف يانيل هذا الشقاء ... فجئت تضاعف خسرانها ؟

***

تحيرت يا نيل ماذا دهاك ... وأوحى لنفسك طغيانها
أساءك من مصر هذا السكون ... فقمت تحرك شبانها ؟
وأوغر صدرك يأس البلاد ... فجئت تجدد ايمانها ؟
ورحت تكذب ظن الدخيل ... وتوقظ للمجد أعوانها
تحرّكْ وحدك في أمة ... أذل التفرق وحدانها
بلوت بنفسك ماضي البلاد ... وأدركت بالأمس سلطانها
وكيف تناهى اليها النبوغ ... فراحت تعلم جيرانها
تلقى من الوحي شتى الفنون ... وترفع في الأرض ميزانها
تدب الحياة على جانبيها ... فتُشعر بالعز ولدانها
على البر تحشد أجنادها ... وفي البحر تنصر ربانها
تذكرت «أحمس» يزجي الصفوف ... ويدعو الى النصر فرسانها
و«رمسيس» يخطر في جنده ... فخور المواكب مزدانها
وآنست في مصر عهد الرشاد ... وقد شمل العدل أركانها
تلقّى الرسالة في غبطة ... ولو كره الروم اعلانها
تسير الى الحق منقادة ... اليه وتخلع بهتانها
وتمسي من الأمن في جنة ... وقد كرهت قبلُ حرمانها

***

أسفت لحاضرها المستكين ... وأنكرت يانيل خذلانها
كرهت هدوءك في أمة ... أطاعت إلى اللهو شيطانها
فجن جنونك يابن السماء ... وقمت تنبه وسنانها
ألا فلتقر فقد بايعتك ... وسوف تقدم برهانها
ستحذو مثالك في فعلها ... وتجعل عهدك قرآنها
ستنفض عنها غبار القرون ... وتنزع يانيل أكفانها

محمود الخفيف

بين الشهرة والخلود

لأميل لدفيج

تلخيص محمد أمين حسونة

خطر ببالي ذات شتاء أن أمضي شطراً طويلاً منه في منطقة الألب لأستمتع بدفء الجبال ، فكان مما استرعى اهتمامي في منطقة التيرول ، تلك الكنيسة الفخمة التي اشتهرت منذ القرون الوسطى بأثرية ناقوسها وروعته ، فلما مر بخاطري زيارته ، صعدت الى القبة لأشبع العين من فتنته ، وهناك تملكتني الدهشة والعجب ، إذ كانوا يعلقون صورة « شيللر » إلى جانب صور القديسين الأبرار ، كتذكار لمقطوعته الخالدة « نشيد الناقوس » !

فشيللر الكاتب الملحد ، عدو الكنيسة والكثلكة ، يجعلون منه رمزاً للقداسة والخلود ؟ ولكن لا عجب فقد تكون شهرته كشاعر مخلد لذكرى « الناقوس » هي التي حدت بهم الى رفعه في مثل هذا الموضع الذي يرتكز عليه . وهكذا تكون الشهرة حامية للأغلاط . إننا نذكر جميعاً غلطة « كوك » المعروفة ، وكيف دفعته الى مصاف العظماء ، وقذفت باسمه الى أول قائمة المكتشفين الخالدين ، ولو أن لعبته لم تكتشف إلا بعد مرور فترة طويلة !

إذن فالشهرة ليست بمعناها المعروف ، هي « العظمة » ، وقد لا تهدينا شهرة الرجل الى تقدير مناحي عظمته في ثوبها الحقيقي ، وإلا كان من حقنا أن نفاخر « بشارلي شابلن » عن « برجسون » وأن نفضل « مستنجيت » على « مدام كوري » . مع أننا كمؤرخين في عنقنا دين تجب تأديته للأجيال المقبلة ، ذلك هو تصحيح الأخطاء التي تلابس أولئك الذين يستحوذون على الشهرة عن طريق المخادعة .

وقديماً ذكروا : ألا يجوز البتة إعلان كون الناس سعداء ماداموا أحياء(١) ! فاذا جاز لنا أن نحكم بأن حياة الانسان إن هي إلا رواية تمثل مشاهدها ، ففي مكنة « فصل خامس » منها أن يطفيء أنوار فصول أربعة تقدمته ، وفي ضوء هذه النظرية لا يمكننا الحكم على أعمال الرجال إلا بعد موتهم ، ولا أن نخلع عليهم ثوب العظمة وهم أحياء ، فمن المحتمل أن يأتي هذا المثوب فضفاضاً عليهم ، أو يحدث في أواخر أيامهم ما يدفعهم الى تشويه هذه الصفحات التي نكون قد ملأناها حمداً وثناء عليهم !

إن سرعة انتشار الأخبار تمكننا من معرفة أي رجل اشتهر في أقل من لمح البصر ، فاسم « ليندبرج » — قاهر الجو — عرفه في ليلة واحدة خمسمائة مليون شخص من أقاصي منشوريا الى جنوب استراليا ؛ كذلك كان أمر « كوك » حين انتحل لنفسه اكتشاف القطب الشمالي ، ولو أن خدعته اكتشفت فيما بعد ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن رسخ اسمه في قلب كل انسان كمكتشف عظيم !

إن الآلة التي تخرج لنا العظماء اليوم غيرها قبل خمسين عاماً مضت ، فليس الرجل العسكري هو الذي ينال إعجاب أبناء هذا الجيل ، وليس من حقنا تدوين اسمه في ثبت العظماء ، كما فعل

(١) هذا الرأي مأخوذ عن أرسطو في كتابه « الأخلاق »

مدينة الأحرار

للاستاذ محمد محمود جلال

الله اكبر « يا جنيفْ » ... فوق الجمال « دم خفيفْ »
طهرت كالجنات من ... لغو ومن هم مطيفْ
وخبرت للأحرار إلا ... من نسيم أو حفيفْ
يلقى الربيع بك المشــرد بعد إعنات الخريفْ
كم صنت عزة أنفس ... ووقيتها ورد الحتوفْ
فوقفت ســداً مانعاً ... دون العواصف والصروفْ
فيــك التقيت بنخبة ... هم عدة الشرق المنيفْ
وغنمت أمتع جلســة ... في « بارك(١) لجرنج » الرفيفْ
وإذا البحيرة ناظر ... إنسانه من (ليزوفيفْ)(٢)
يذر الفــؤاد مردداً ... « الله أكبر يا جنيفْ »

(١) هو بارك لاجرنج La Grange من أوسع المتنزهات وهبه صاحبه والقصر القائم في وسطه للبلدية ، وشرط ألا يدخله خمر ولا رقص — وتقوم بأدارته أرقى سيدات الأسر الكبيرة بجنيف — ويحظرون فيه إعطاء « بقشيش »

(٢) يهتم السويسريون ويعتزون ببحيرة ليمان . يحسنون استثمارها ملاحة وصيداً وشرباً ويدعون ماءها (Les eanx vives) ولهم ميدان لهذا الاسم في المدينة .

الاسكندر وقيصر ونابليون ، كلا ! فالشعوب أصبحت لا تتهافت على معرفة اسم القائد المنتظر فى الميدان ، لكنهم يتساءلون عن الآلة الجهنمية التى أحرزت التغلب ، وخفقت فوق ربوعها بنود النصر . وخذ اسم الماريشال هيندنبرج مثلا ، فلا يتطرق الى أذهاننا أن شهرة اسمه راجعة الى عظمته الحربية وحدها ، بل لذلك الاعتقاد السائد فى النفوس ، وهو اعتباره «أبا للشعب». والاعجاب اليوم لا ينال الجيوش الظافرة فى ساحات الوغى ، أكثر مما ينال ذلك «الجندى المجهول» الجامع لرفات الانتصار والانكسار .

إن شهرة كبار القواد الذين خاضوا غمار الحرب العظمى ، وكان النصر حليفهم فى المعارك الكبرى ، قد تضاءلت حتى كادت تتلاشى ؛ كذلك مآل بلسودسكى ومصطفى كمال وموسولينى ، فسوف يصبح اسم كل منهم خرافة سائدة فى أفواه الأجيال المقبلة .

* * *

ومن يحرز الشهرة إذن ؟ إن رجال الألعاب الرياضية وأبطال الملاكمة ونجوم السينما هم وحدهم الذين يحرزون الشهرة دون غيرهم . أما الأولون فلأن الجماهير تساهم بقسط وافر فى الشهرة التى يحرزونها عن طريق المراهنة فى مبارياتهم ؛ وأما نجوم السينما فيستولون على الشهرة بفضل الملابس الزاهية وإتقانهم الأدوار التى تتطلب المثل العليا فى الحب والتضحية .

ولأنهم جميعاً يشغلون قلوب الجماهير ويستدرون عواطفهم فى كل مناسبة ؛ فملامحهم وصورهم وحياتهم الخاصة مطبوعة على صفحة كل قلب بفضل الصحافة المصورة التى تمهد لهم سبل الشهرة والدعاية فكاروزو مثلاً اشهر أكثر من غيره من المغنين السالفين بفضل اختراع «الفونوغراف» الذى خلد صوته

إن مهمة المؤرخ دقيقة وعسيرة فى هذا العصر ، فيجب ألا يعتمد على الشهرة وحدها فى جعلها مقياساً للعظمة ، وإنى باعتبارى مؤرخاً لايحق لى مطلقاً أن أخدع نفسى وقرائى بجعل الشهرة عظمة . إنى لا أجد اليوم موسيقياً بعد «مولر» ، وأذكر «ليبرمان» فى أول قائمة الفنانين العالميين ، وأسائل نفسى وقرائى عن «كاتب القرن الحالى» الذى يحق له إحراز هذا اللقب النبيل ، والذى له الفضل فى تربية ملكة الذوق لجيلنا الحاضر فلا أجد غير «برنارد شو» ، كما كان «فولتير» كاتب القرن الثامن عشر ، نعم إن هناك كتاباً يفوقون «شو» سواء فى قوة الابتكار أو سلاسة الأسلوب ومتانة التعبير ، وأذكر منهم : ابمان ، وهمسون ومان ، ودانزيو ، وبيراندللو ، ورولان ، ولويس ، ولكن «شو» قد أثر بآرائه ومداعباته واستحواذه على لب القارىء أكثر من سواه .

* * *

وإذا خطر لنا أن نتكلم عن السياسة حق لنا أن نعترف بأن رجالها قد احتضروا واختفوا من الأفق سراعاً : ويلسن ، ولينين ، وكليمنصو . أما «لويد جورج» فشيخ رجال السياسة الحاليين وأكثرهم دهاء ، و «موسولينى» أخطرهم وأصغرهم سناً ، ولكن إذا تحدثنا عنه كسياسى ، أيحق لنا أن ننعته بالعظمة ؟ كلا ! فالحكم للمستقبل . وموسولينى يؤدى الآن دوره على خشبة المسرح ، وقد انصبت الأنوار فجأة عليه من كل جانب فأخفت «الرتوش والمكياج» التى تخفى شخصيته الحقيقية ، وتظهره أمام الجماهير فى ثوبه الخيالى معبوداً للشعب ؛ انه لايزال فى الفصل الثانى من الرواية التى تمهد القيام بدور البطل فيها ، وليس لأحد أن يتكهن إذا كان الستار سيسدل عن تصفيق وإعجاب ، أو عن استهزاء وسخرية (١) !

* * *

وإذ ذكرت سياسي الجيل الحاضر ، فانى أتحدث عن «فينزيلوس» اليونانى و «مازاريك» التشيكى : فالأول سياسى محنك ورجل داهية ، والثانى حلم بنى وطنه لعشرين عاماً خلت ، كما أن زعماء المضطهدين — لسان حال الشعوب المظلومة — قد أحرزوا الاعجاب بمبادئهم الاشتراكية السامية ، وضربوا أحسن الأمثال لأممهم فى التضحية ، وأخص بالذكر منهم : «مكسوينى» محافظ كورك الذى ذهب ضحية إخلاصه لمبدئه ، و «غاندى» رجل الهند — بل الشرق — الوحيد .

* * *

أما رجال العلم والصناعة فقد كان الجيل الماضى حافلاً بالكثير من شخصياتهم البارزة . أما جيلنا الحاضر فمفتقر الى طائفة كبيرة

(١) لاميل لدفيج رسالة طويلة كتبها بعد هذا البحث عن «محادثاته مع موسولينى» ضمنها آراء أخرى يعارض فيها كتاب لويجى شتورزو عن «إيطاليا والفاشستية»

منهم ، فانه لا يوجد اليوم علماء للآثار القديمة جديرين باحراز هـــذا اللقب الذى استخلصه لنفسه شامبليون ، ولا مؤرخون يستطيعون إرواء ظمأ المتعطشين الى نظريات حديثة ، ولا علماء فى الاقتصاد والتشريع والفلك كعلماء القرن الماضى من الانجليز أو الألمان .

إن عالمنا اليوم لاعمل له سوى الجمع بالنسبة للماضى ، والتمهيد بالنسبة للمستقبل ، ومع كل فهناك شخصيات برزت فى بعض الصناعات التى كان العالم فى أشد الافتقار اليها . فبركلند ، وآيد النرويجيان انتشلا شعوباً من المجاعات باقدامهما على استخراج النيتروجين من الهواء ؛ و « هابر ، وارنست ، وارينوس » أول من أحدثوا نظريات جديدة بشأن السوائل ، كذلك « بور » الدانيمركى و « بلانك » الألمانى ، والى جانبهما تأخذ « مدام كورى » مكانتها العلمية كامرأة واصلت البحث والدرس بعد موت بعلها بعشرين عاما .

أما علماء النفس فعلى رأسهم « فرويد » الذى أيقظت نظرياته الحديثة شعور ألوف المثقفين فى العالم ؛ ويجىء دور « اينشتين » شيخ علماء الحكمة الطبيعية الذى زحزحت نظرياته الرياضية الكثير من الاعتقادات العلمية التى كانت سائدة فى أذهان علماء الأجيال الغابرة .

وهناك « مركونى » الايطالى و « اركو » ، والى جانبهما « اخوان رايت » و « فورد » ، والى جانبهم أبطال الصناعة الذين لهم الفضل فى ابتكار اللاسلكى وبناء الجسور وحفر الترع وتشييد المنشئات الهندسية الحديثة كمحطات الكهرباء والخزانات والمصارف وناطحات السحاب .

ولكن أين هم هؤلاء الأبطال ؟ من هم أساتذة الصناعة والفن اليوم ؟ من يعرف منشىء جسر اليشون أو أرث الخامس أو خزان أسوان ؟ من الصعب أن نعرف أسماء كل هؤلاء الأبطال ، لأن أعمال الشركات خيمت على جهود الأفراد ، وجهود الأبطال قد اندمجت فى أعمال الشركات .

وعند ما تنحدر الشمس الى المغيب وتجد مكانها الأنوار الكهربائية المتلألئة ، لمن نتوجه بالحمد على كل هذا ؟ لمن الفضل فى سر الاتصال بين الأمم بأسلاك التلغراف وفى نقل الرسم والصوت من مكان قصي فوق ثلوج سيبريا الى عبيد الكونغو مثلاً ؟ إن أحداً لم يستطع تذليل العلم وتسخيره فى أغراض المجتمع وإفادته كما استطاع ذلك خالد الذكر « أديسون » .

وهكذا نأتى فى النهاية لنشيد بذكر أكبر عالم نظرى الى أعظم مخترع عملى ، أولهما ألمانى وهو عقل العالم الذى يميز به حقيقة الأشياء ، وثانيهما أمريكى وهو عين العالم التى ترى بها الضوء ، كلاهما نشأ فقيراً معدماً ، ليس مديناً لأحد إلا لعبقريته ونبوغه ، هما « ايمانيس » الذى وهب الثقافة وحرية الفكر للعـــالم ، و « بروميسثيس » الذى اختطف النور من الآلهة ليهديه الى البشرية هما :

انيشتين وأديسون .

محمد أمين حسونة

العلوم

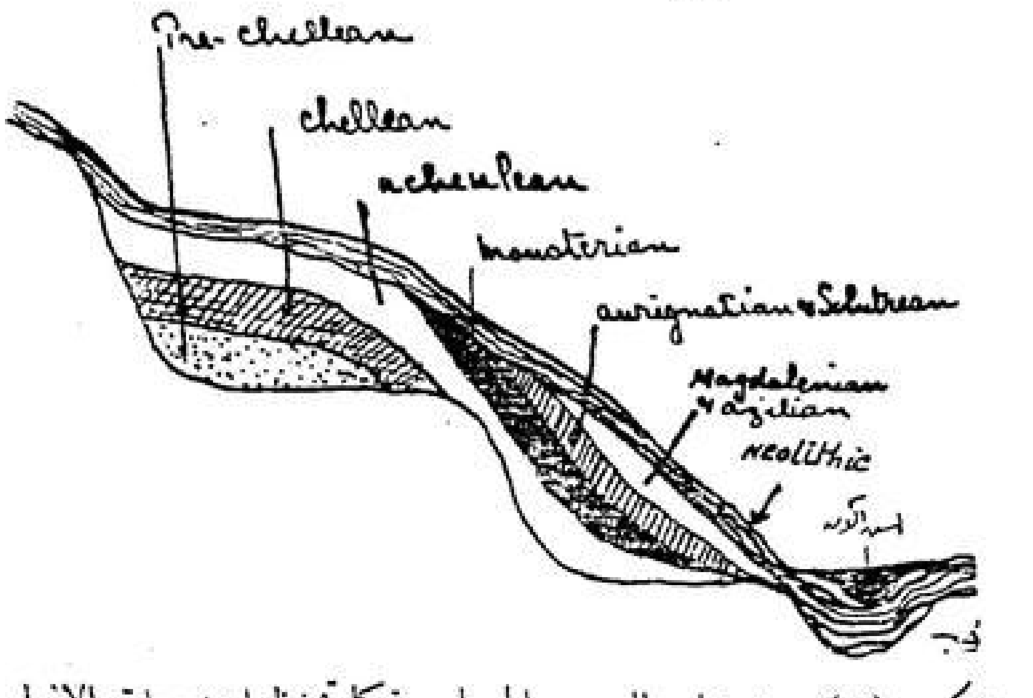
٢ ـ بحث فى أصل الانسان

بقــلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافية

استمر (بوشيه) برغم كل معارضة قامت فى وجهه ، ولم يتطرق إليــه خمول أو تهاون ، فنشر فى عام ١٨٤٧ كتاباً عن اكتشافاته قوبل بالاستنكار ،ونظرإليه الناس نظرتهم إلى مجنون . وظل على هذا الحال حتى أتى بعض العلماء الانجليز يساعدونه عام ١٨٥٨ فاختبروا صخوره وفحصوا ما وجده من عظام متحجرة ، وظلوا يجادلونه ويجادلهم حتى اعترفوا وجاهروا — بعد التثبت والاقتناع — أن هذه الصخورمن عمل الانسان وتشكيله. وهكذا ثبت أن الانسان كان موجوداً فى وادى نهر السدم بفرنسا عند ماكان المدرج الموجود الآن على ارتفاع ١٠٠ قدم مكوناً مجرى النهرفى ذلك الوقت حيث كانت تعيش أنواع غريبة من الحيوانات ؛ وبذا يفتتح العــالم أول باب لتاريخ حياة الأنسان فى المدرجات .

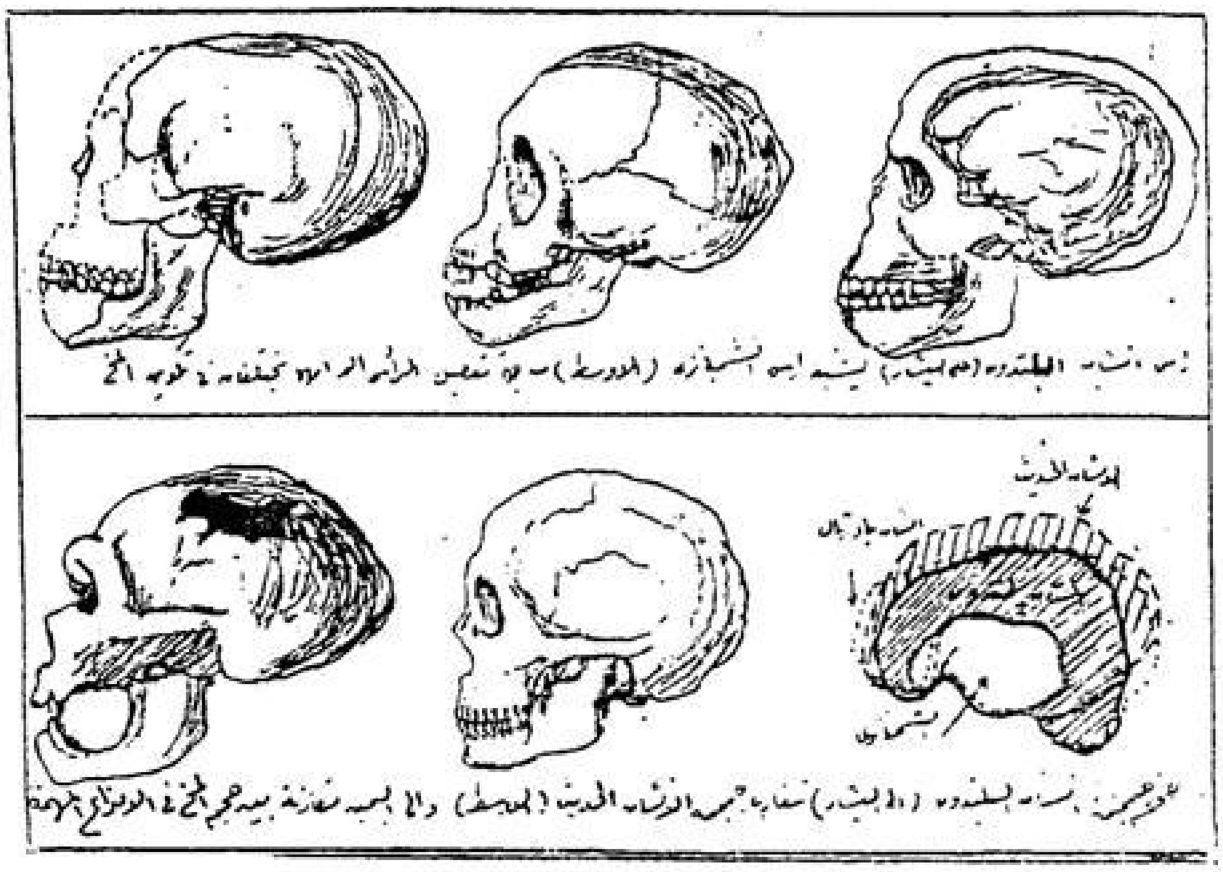
وعند ما عاد العلماء الانجليز إلى بلادهم وجدوا فى مدرجات نهر التيمس Tames نفس الصخور النارية أو Palaeoliths وعظاماً متحجرة تماثل تمام التماثل تلك العظام التى وجدت فى نهر السدم . وبذلك بدأ استخدام حفريات الأنهار لمعرفة تاريخ الانسان القديم منذ مائة عام تقريباً ، ولــكنها لم تتحول إلى فن صحيح ذى قواعد إلا فى السنوات الأخيرة

سبق لنا أن تتبعنا تاريخ الانســان القديم ممـا وجده الباحثون فى الــكهوف ، وسنحاول الآن أن نرى ما قد تــكشف لنا عنه هذه المدرجات . وفى الشكل (٢) ترى مثلاً عاليا لتتابع المدرجات ، ومن الطبقات السطحية للمدرجات السفلى نجد شواهد الــكهوف نفسها ونفس الأدوات الحجرية عينها ، بل وهيا كل أنواع الحيوانات البائدة والعنصر الانسانى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت . تأتى بعد ذلك مدرجات أحدث من الأولى تــكونت فى عصور متتابعة هى: سولتريان Solutrean ، وأورجنتيان Aurignatian، وماجدالينيان Magdalenian ، وموستريان Mousterian، وهو العصر الذى يقع قبل عصر الجليد مباشرة ، وبذا نصل إلى



شكل (٢) يبين تتابع العصور الجيولوجية كما تحفظها مدرجات الانهار

عصر غمرت فيه الثلوج القارة الأوربية ، وفى هذه الفترة يقع عصر أطلق عليه اسم أشيوليان Acheulean . ومن عصر الموستريان حتى الآن تقع فترة يبلغ طولها ٤٠ ألف سنة . وليس هناك أدنى شك فى أنه كلـا اتسع أفق العـلم أمامنا وازدادت الابحاث أمكننا تقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى حلقات متتابعة — وفى هذه الفترة نجد أنواعاً من فؤوس Coup-de-poing صنعت من الصخر النارى ، عليها أثر الصنع بل والاستعمال . وإذا أنعمنا النظر فى المدرجات عــدنا إلى البقايا القديمة للعصر المسمى شيليان Chellean وهو السابق للمسمى أشيليان Achelean امتياز بزيادة دفء جوه عن جو العصر الجليدى . وفؤوس هذا العصر كبيرة نوعاً ما عن فؤوس عصر الأشيليان . ونحن إذا قدرنا لها مدة ليس فيها مبالغة وهى ٤٠ ألف سنة ، فاننا نصل إلى فترة من فترات تطور الانسان تبعد عنا بنحو ١٢٠ ألف سنة . ويأتى قبــل عصر الشيليان عصر لا يســعنا لجهلنا به إلا أن



شكل (٣) يبين أوجه الشبه أو التقارب بين انسان البلتدون والانسان الحديث وأهم هذه الأوجه شكل الرأس وحجم المخ وتقاطيع الوجه والفك كما فى المقال

نسميه ما قبل عصر الشيليان Pre-chellean وقد وجدت آثار تدل عليه على عمق ١٠٠ قدم فى مدرجات نهر التيمس بانجلترا ، ومن هذه الفترة نصل إلى بدء عصر البلشتوسين Pleistocene

ولهذا العصر أهمية خاصة عند الباحث فى تطور الأنسان ، إذ أنه فى فجر هذا العصر أخذت الحيوانات شكلها الحالى ، وتطور الانسان تطوره الأخير الذى جعل له من الخصائص ما يمتاز به اليوم من سائر المخلوقات . وبابتداء هذا العصر يمكن القول بأن العالم الحى أخذ شكلا جديداً من مظاهر التطور الحديث ، ولذلك فان علماء الحيوان يضعونه فى المرتبة الأولى من فترة حديثة لتاريخ الانسان أطلقوا عليها اسم كواترنارى Quaternary ولسنا نعرف متى بدأت هذه الفترة ، ولو أن بعض العلماء قدر لها مليون سنة ، إلا أننا لا نبالغ فى التقدير اذا قلنا إن هذه الفترة بدأت من ٢٠٠ الف سنة كما فى شكل « ٣ »

ولحسن حظ التاريخ الحديث أن يصنع الانسان الأول أدواته وأسلحته من الصخر النارى ، لأنه قد مكننا من معرفة التاريخ وتتبع حركاته وأدواره حتى عصر البليستوسين بتتبع الآثار التى تركها لنا فى أدواته وحاجاته . وقد وجد الباحثون القواعد التى قطعت وشكلت عليها الأدوات الصخرية ، بل وجدوا عظاما من بقايا من قام بصنعها . إلا أنه برغم الأبحاث المتتابعة لم يوجد إلا بقايا قردين ممن سكن أوربا فى فترة البريشيليان : أحدها سمى انسان هيدلبرج ، وكل ما وجد منه فكه الأسفل . وقد وجد فى أسفل واد من أودية نهر الرين القديم مع عظام متحجرة من عظام نوع من الحيوان كان عائشاً فى أوربا فى الفترة الأولى من عصر البليستوسين ، وكان معاصراً لانسان هيدلبرج . ولقد لوحظ أن الفك خشن كبير وأصلب من أى فك لأى عنصر من العناصر المعروفة ؛ أما نظام أسنانه فانه يماثل تمام التماثل نظام أسنان القردة ، إلا أن الأنياب الحادة البارزة فى قرد الانسترويد قد انخفضت واستوت هنا مع باقى أسنان الفك عند انسان هيدلبرج

وأما القرد الآخر الذى كشف عنه ومر ذكره بك ، فقد عرفنا عنه معلومات تزيد كثيراً عما نعرفه عن انسان هيدلبرج ، كان يسكن أوربا فى عصر ماقبل الشيليان Pre-Chellean وقد وجدت بقايا من عظامه المتحجرة فى جهة بلتداون Piltdown بانجلترا ، ولذلك سمى باسمها إنسان بلتداون Piltdown man ولنا من البراهين القوية مايثبت أن هذه الجهة أقدم بكثير من الجهة التى وجد بها فك انسان هيدلبرج . ولذلك فاننا نرجح أن يكون الحلقة الانسانية التى سبقت انسان هيدلبرج بما فيها من تطور .

ويرجع فضل الكشف عن هذا الانسان الى الأستاذ شارلس داوسون الذى كان محامياً فى ليوس Lewes ثم تفرغ لدراسة جيولوجية منطقة Sussex حيث وجد هذا الانسان .

فى عام ١٩٠٨ قبل أن يموت ذلك الأستاذ مأسوفاً عليه ممن قدر قيمة كشفه مر على طريق جديد قد رصف بنوع من الصخور النارية التى لم يكن قد رآها من قبل ، ولكنه كان يعرف أن هذا النوع كان يستعمله الانسان القديم فى صنع أسلحته وأدواته ، ولذلك أخذ يستعلم عن مصدر ذلك الصخر حتى علم أنه يستورد من منخفض فى وسط مزرعة على حدود Piltdown Common ، ولما كان يتردد كثيراً على هذه الجهة فانه عقد أواصر الصداقة مع عمالها ، وبمساعدتهم حصل بعد سنوات قلائل على لوح سميك من العظم اشتبه فى أن يكون جزءاً من جمجمة انسان قديم . ولكنه لم يتمكن من الحصول على باقى الجمجمة الا حوالى سنة ١٩١١ .

ثم قام بعد ذلك هو والسير آرثر سميث وودوارد Sir. A. S. Woodward بالحفر فى هذه المنطقة ، فوجدا بقايا أخرى من هيكل الرجل الذى وجدت جمجمته ، ووجدا أيضاً هيا كل

متحجرة لحيوانات قديمة بائدة ، وبقايا أدوات وأسلحة غالبها ينتسب الى عصر ما قبل شيليان Pre-Chellean ، ومنها ما يمت الى عصر أقدم من ذلك وهو عصر Eoliths

وأمكن بعد ذلك معرفة حجم الجمجمة وشكلها ، وتُخيل شكل لها قبل التحلل والتكسير ، ثم بواسطة صب عجينة من المصيص داخلها أمكن معرفة حجم وشكل المخ الذى كان يُسير سكان العالم الأول خلال صعاب الحياة . وقد لوحظ أن حجم مخ البلتداون يرتفع عن المستوى المقدر للأجناس المنحطة من العناصر الانسانية ، إلا أنه من جهة أخرى يبتعد كل البعد عن مميزات الجنس الحديث .

أما تلافيف المخ فقد لوحظ أن هناك شبهاً كبيراً بينها وبين الانسان بعكس انسان النيادرتال الذى يشبه مخه مخ القرد . مع أن تكوين وجه انسان البلتدون يقربه كثيراً من القردة .

وأما نصف الفك الأسفل فهو عجيب حقاً ، لأنه قد وجد أنه وتركيب الأسنان فيه يمتان الى القردة تماماً ، وأن شكل الأنياب عنده لا يختلف عن شكلها أبداً عنـــد صغار القردة . وهذا الفك يشبه تمام الشبه فك الشمبانزى مع أنه فى انسان هيدلبرج يرغم كبر حجمه كبراً غير متناسب مع الانسان الحديث ، لا يختلف فى شىء كثير عن فك الانسان العادى المعروف لدينا جميعاً .



شكل ٢ فك هيدلبرج فى شكل الفك شبيه الدوسن بعد تشابه ٦

وبذلك نرى أن انسان البلتدون يصل بنا الى درجة أو عصر لم يكن قد تغير فيـه شكل رأسه أو أسنانه عن شكلها عند القردة إلا قليلاً ؛ وبمعنى آخر أن التطور والارتقاء قد حدثا عنـده فى المخ وقوى التفكير ، قبل أن يحدث فى شكله العام وعلى الأخص شكل وجهه بفكه وأسنانه .

ونحن إذا خامرنا الظن أو الشك فى نشأة النوع الانسانى ، وجال بنا الحدس أنه قد انحدر من عنصر أولى منحط يشبه القردة إن لم يكن منها بالذات ، فانه يلزمنا أو يلزم من يقول بذلك البرهنة على صحة هذا الظن أو ذاك القول .

ولذلك نظن ظناً كافياً أن نقول تدليلا على صحة ذلك أن العلماء حينما كانوا يبحثون عن أصل الأنسان الجيولوجى قد وجدوا أنه فى منطقة Piltdown بانجلترا كان يعيش عنصر انسانى قديم جدا جمع فى جسمه وعقله صنعة الانسان المعروف ، وفى وجهه وفكه شكل القردة وصنعتها .

وربما اعترض معترض علينا فى ذلك بأنه ربما كان يسكن هذه المنطقة من انجلترا نوع منحط من الانسان وعنصر راق من القردة أو الشمبانزى ، وأن الجمجمة التى بنيت عليها الأبحاث ، وجاءت هذه النظرية نتيجة لها ، لم تكن جمجمة قرد واحد ، بل مجموعة أوخليطاً من جمجمة انسان وجمجمة قرد انحلتا واختلطتا بعد التحلل ! .

إلا أن ذلك الاعتراض يمكن الرد عليه بقولنا إن الأجزاء التى تجمعت وتكاملت أجزاؤها مكونة جمجمة كاملة تتكامل أجزاؤها تمام التكامل ، وتتفق كلها فى المقاييس المقدرة لها ، كما أنها من نوع قد تحجر فى وقت واحد ، وهذا كله لا يمكن القول بأنه وليد المصادفة ، وبذا يثبت أن الجمجمة هى لفرد واحد هو انسان البلتداون

وقد بلغ اهتمام السير ارثر سميث وودوارد بهذا العنصر الانسانى الجديد الشبيه بالقردة مبلغاً كبيراً حتى أنه اعتبره عنصراً انسانياً لم يكن معروفاً قبل اكتشاف بقاياه فى Piltdown وأطلق عليه اسم الانسان الأول أو Eoanthropus .

يتبع

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

من الأدب التركي

المعلمة الصـــغيرة ..

ترجمة الآنسة الفاضلة (فتاة الفرات)

تتمة ما نشر في العدد الماضي

لم تكلمني حتى وصلنا الى (سركه جى) حيث موقف الترام هناك فقالت :

— هنا كنت أنتظر ياسيدى ، وفى كل يوم كنت أركب الترام من هنا ، ولا أدرى كيف أخطأت فى هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن « الجسر » لا اليه ؟ ولا أدرى كيف لم أنتبه لذلك ؟ كان السبب كما قلت ياسيدى الظلام الحالك والمطر الكثير الذى أدهشني ، لو تدرى ياسيدى كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة للهواء الذى يعصف بشدة ، وكم لقيت من الانتظار ، لقد ظننت أن غشاء أسود قد ستر عينى ، لا أقدر أن أصف لك اضطرابى حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير فى الليل ، آه لقد تأخرت كثيراً . .

— لقد كانت كأنها فى حمية عن الكلام ثم تركتها فذهبت فيه مذهباً بعيداً وقالت :

— غريب جدا أن المصادفات فى بعض الأحيان تظهر للمرء عجائبها وغرائبها كأنها تسخر منه ، لقد فاتنى القطار أيضا فى « مقرى كوى » لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأنى انتظرت هناك طويلا ، ولم يكن يخطر لى على بال أنى هنا سأركب فى آخر عربة تسير فى الليل وفى غير الجهة التى أقصدها .

فسألتها :

— إذن أنت آتية من مقرى كوى ؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئاً فشيئاً لأن وجودى بجانبها طول المسافة التى قطعناها أظهرها على حسن نيتى وجعل لى فى قلب هذه الفتاة الشابة موقعاً حسناً فأجابتنى على سؤالى جوابا طويلاً مفصلا ، قالت :

أجل ياسيدى انى أذهب مرتين فى الأسبوع الى « مقرى كوى » لاعطاء درس خصوصى هناك لأحدى السيدات ، آه ياسيدى ! إن حياتى شقية جداً ، محتم علىّ أن أشتغل من الصباح حتى المساء فى جميع أنحاء هذا البلد الكبير ، تصور المسافات التى أقطعها كل يوم : ذهبت اليوم صباحا الى « طرابية » وعدت منها إلى « مقرى كوى » وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتنائى بعضها عن بعض . على هذه الصورة يجب أن أشتغل فى أربعة أطراف البلد ؛ فاذا كان الصيف احتملت كل ذلك ، لأن النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسى من غير كبير مشقة ولا عناء ، أما فى الشتاء فالمشقة فوق الطاقة وخاصة فى مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء ، لقد غلبنى اليوم البكاء أكثر من مرة ، ولا أتذكر أنى تأخرت مثل هذه الليلة ، وما الذى اقوله الآن فى البيت لوالدى ؟

وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها ، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها ، ولما لم تجد فى نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهى تنفض ذراعها المبتلة من المطر .

— لقد ابتلت ثيابى .

فقلت لها :

— إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذى مظلتى فهى تحفظك من المطر .

ولكنها لم تقبل وقالت :

— أشكرك ياسيدى ! لا أود أن تبتل ثيابك أكثر مما ابتلت ، ألا يكفى ما تحملت حتى الآن من أجلى ؟

أردت أن أعود بها الى الحديث عن حياتها فقلت لها :

— إذن لك والد فقط يا آنسة ؟

— نعم ياسيدى . ثم قالت :

— أظننا قد بلغنا الجسر ؟

وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شيء أبداً ، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت في حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وأن تحدثني عن حياتها ، أجل ! بحاجة شديدة إلى ذلك ، فقالت :

— فقدت والدتي منذ سنتين ، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير . كانت والدتي في حياتها هي التي تشتغل لنا ، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى برارتها وألمها . . هل لك والدة ياسيدي ؟

فأشرت اليها برأسي أن نعم ، على أنها ما كانت تنتظر مني جواباً ، لأن سؤالها هذا كان مقدمة لما تريد أن تحدثني به فقالت :

— إن أكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدئ من تاريخ وفاة أمه ، لقد كنت حتى وفاتها أجهل الحياة وما فيها ، كنت في مدرسة داخلية لا أعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظري بين جدرانها السامقة ، لا أعرف شيئاً ولا أعرف أحداً أبداً ، فلما توفيت والدتي واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء في البيت علمت أنني أجهل كل شيء حتى أبي ؛ أما الآن فقد عرفت الحياة جيداً ، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم . لقد علمت كل ذلك، ولم يكد يمضي على دخولي في معترك الحياة أكثر من شهر . ولكن من المؤلم جداً أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لأن أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة . لقد وصلنا إلى « الجسر » ياسيدي . أشكرك شكراً جزيلاً ، وهذه عربة هنا تقلني إلى البيت.

وهنا تهيأت لوداعي ، ولكني رأيت أن المصادفات قد وقفتني على قصة حياة مؤلمة ، فكنت أفكر في وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت ، فقلت لها .

كلا أيتها الآنسة ، إني سأرافقك حتى الجانب الآخر من « الجسر » لأني عدلت عن الرجوع إلى بيتي في مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك ، فلم تعارضني بل اكتفت بتلك الايضاحات وسرنا نقطع « الجسر » ونحن ساكتان .

كنا نمشي معاً على أحد جانبي الطريق ، وكنا نلاقي مشقة شديدة في إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذي كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب . وفي تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت :

— نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تضارعها مصيبة .

ثم استأنفت كلامها فقالت :

هل تدري ياسيدي ما الذي يقلق فكري أكثر من كل شيء بعد هذا التأخر ؟

كانت مضطربة تماماً واضطرابها يزداد شيئاً فشيئاً ، كانت تشعر أنها في حاجة إلى أن تقص على هذا الرجل الذي لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التي خفيت من نواحي حياتها .

فسألتها بسكون قائلاً :

— ماهو أيتها الآنسة ذلك الذي يقلقك ؟

قالت : والدي ! . ثم سكتت قليلاً وقالت :

— أراني لا أقدر أن أصف لك والدي وصفاً دقيقاً ، لا أدري كيف تنظر الى فتاة تشكو اليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها ، ولكنك بمرافقتك لي حتى هذا المكان أثبت لي طيبة قلبك وصفاء نيتك ، وأنك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التي ساقتني الى الشكاية ، أليس كذلك ياسيدي ؟ .

كان الهواء يعصف بشدة ، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا ونقاوم الهواء الشديد فأغلقناها وأخذنا نمشي غير مبالين بالمطر

القليل الذى ينزل ، بل خففنا السير لندرك وقتاً كافياً للتكلم معاً ، وقد اقترب كلانا من الآخر ، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق .

كانت هى فى حاجة الى أن تشكو الىّ همومها ، أجل ! كانت فى حاجة شديدة جداً الى أن تنشر كل ماخفى من نواحى حياتها ، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذى ربما كان اجتماعها به مصادفة واتفاقاً أول اجتماع وآخره ، فقالت .

— اعلم ياسيدى أنى الليلة ككل ليلة سأجد والدى سكران طافحاً ، وحينما يرانى يستقبلنى بكلمات الشتم والتحقير ، وفى بعض الأحيان . . . . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لى بأكثر مما يجب ، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التى شرعت فيها بصورة أخرى ، فقالت :

— لا أذكر أن والدى عمل يوماً ما عملاً مثمراً يعود عليه وعلينا بربح ؛ كان فى شبابه صاحب مقهى صغير فى « بك أوغلى » ، وكان يأتى بمغنيات فى الشتاء الى قهوته ، وكانت والدتى إحدى أولئك المغنيات ، اشتغلت عنده ثم تزوجها ، وقد علمت هذه التفصيلات واحدة بعد أخرى مصادفة واتفاقاً ، ولا أدرى كيف تم الاتفاق بين أبى وأمى على الزواج الذى كنت ثمرته ، ولكن ظهورى فى الحياة كان سبباً لأمراض كثيرة أصابت والدتى ومصائب أخرى اضطرتها الى ترك العمل وأرغمت والدى على ترك المقهى . كانت والدتى موسيقية بارعة ، فبعد أن تركت المسرح صارت معلمة تعطى النساء دروساً فى الموسيقى ؛ وأنا أعرف والدتى وهى معلمة فقط ، لم تكن تملك دقيقة من دقائق حياتها ، بل كلها كانت رهن التعب والشقاء والتعليم والكدح فى سبيل القوت ، حتى اضطرت الى وضعى فى مدرسة داخلية ، أخرج منها فى الأسبوع مرة الى البيت ، أقول « البيت » وأنت تدرك بثاقب فكرك ماهو هذا البيت . كنا نسكن فى غرفتين فى الطابق الرابع من بناء كبير عال . كنت إذا جئتهما فى يوم عطلة أو فى يوم جمعة وجدتهما بعيدين عن الحياة العائلية كل البعد ، فأهرب منهما الى المدرسة . وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه طعام ، ولاتغسل فيه ثياب ، ولا يعمل فيه شىء مما يعمل فى البيوت ؟ كانت والدتى تشتغل بلا انقطاع لتحصيل القوت ، وكان والدى بلا انقطاع يشرب الخمر ؛ فهذان المخلوقان وإن كانا متقاربين جسماً يعيشان تحت سقف واحد ، فقد كانا متباعدين كل البعد معنىً ، وكنت أنا فى سرور لأننى بعيدة عنهما ، حتى أنى لم أكن أجد لهما فى قلبى مكاناً . استدعتنى يوماً مديرة المدرسة اليها وأخبرتنى بوفاة والدتى ثم قالت : « إن المرء تصيبه فى حياته مصائب جمة ، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر » ، لم أجد فى ذلك الوقت وفاة والدتى مصيبة كبيرة كما قالت المديرة ، ولكنى أصبحت أحب والدتى بعد وفاتها ، آه لو تعلم كم أحبها الآن . . . . كم أحبها !

سكتت هنا قليلاً ، وقد شعرت أن صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة فى أعماق قلبها ، ثم قالت :

— منذ ذاك الوقت أصبحت الحياة علىّ أضيق من سم الخياط . أخرجنى والدى من المدرسة ، وأخذ يسوقنى من مكان الى مكان . أجل ! أخذ يسوق فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، لاتعرف من الحياة إلا مارأته من نافذة المدرسة ، الى الأماكن التى كانت والدتها تعطى فيها دروساً لتقوم مقام أمها فى تحصيل اللقمة ! ومنذ ذاك الحين انتقلت الىّ وظيفة السعى وراء كسب القوت . وأنا الآن أسعى بكل قواى وأعطى دروساً ، وكل يوم أقطع مسافات شاسعة متعبة ، فمن « طرابية » الى « مغرى كوى » ، ومن « اسكدار » الى « بك أوغلى » ، ولكنى لاأدرى لماذا أشتغل كل هذا الشغل ؟ ولماذا أسعى كل هذا السعى ؟ . . إنهم يقولون لى (اشتغلى) وأنا أصدع بالأمر ! . .

كنا على وشك الوصول الى آخر « الجسر » فتراءت لنا أضواء « غلطه » ، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين أسليها بهما ، فقلت لها :

— لا تجزعى يا آنسة ، اصبرى وتجلدى ، فالصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء فى طريق الحياة . فهزت رأسها الصغير وقالت :

— الصبر ياسيدى ! إن الانسان أوجد لنفسه كلمات خداعة يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة . وازداد اضطرابها فقالت :

هل تعلم ياسيدى ماذا ينتظرنى فى البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ إن والدى فى مثل هذه الساعة يعود من الحانة يرسم فى مشيته لام ألف ، فاذا دخل المنزل جلس فى غرفته يتم ما فاته فى الحانة إنتظاراً لى ، وهو قد جعل لنفسه فى البيت حانة صغيرة ، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة ، لو رأيت كل ذلك لدهشت ، كثيراً ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكنى لم أفلح ، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتى الى ترتيب غرفتى الخاصة وتنظيفها ، لله تلك الغرفة الصغيرة ! إنها صغيرة إلا أننى أجد فيها راحة كبيرة ، أنزوى فيها بعد

عودتى من العمل ليلاً وبعد أن آخذ قسطى من كلمات التحقير والشتم التى يستقبلني بها أبى إرضاءً لنفسه وكسراً لحدته ، هناك فى غرفتى فقط أفهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عينى أن تسيل فأجد السعادة فى ذلك البكاء ، أغسل به قسماً مما تراكم على قلبى من الهم والبؤس .

تقول المسكينة « فأجد السعادة » ، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن فى البكاء سعادة ، وفى هذه اللحظة لو لم أخش أن ترتاب بى لأمسكت يدها وشددت عليها بكل قوتى مظهراً ما بقلبى من الرحمة لها والاشفاق عليها .

فقالت بعد صمت قصير :

— أنا على يقين أنني هذه الليلة لن أقدر على تهدئته ، آه ليت شعرى ما الذى سيكون لى منه ؟

فقلت لها :

— ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك ، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها ؟

وقفت عن السير فى الحال ورفعت وجهها إلىَّ ونظرت فى وجهى ولم تقل شيئاً ، إلا أننى أدركت فى الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها ، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذى يدعى أنه خبير بالحياة « أنت غر قليل التجربة » ثم خطر ببالى خاطر فجائى فقلت لها :

— أيتها الآنسة : إذا كانت مرافقتى لك حتى البيت وإعطائى الايضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئاً فاسمحى لى أن أرافقك حتى منزلك .

ترددت قليلاً ثم فكرت ملياً وقالت — وأكثر ظنها أن ذهابى معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته — :

— نعم ياسيدى أقبل لطفك هذا أيضاً .

ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة :

— لقد أثر البرد فى جسمك فهل لك فى قدح من الشاى أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت ؟

ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين . كنا فى ذلك الحين نتجه نحو « غلطه قوله سى » فقالت :

أتراني لو لم تكن معى كنت أجسر على المرور وحدى من هذه الأماكن ؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت « هنا »

دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار المرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزونى ، لا أدرى كم صعدنا ، ولكنى شعرت بدوار فى رأسى وضعفت رجلاى عن حملى لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلاً نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذى فوقه . وقفت أخيراً وأنا أتنفس بقوة ، فقالت ضاحكة : لم يبق درج نصعده !

فدخلنا فى دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب ، فنظرت إلى وجهى ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدى فلم يجبنى أحد ؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتاً يشبه صوت حيوان وحشى ، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويداً رويداً خطوات غير منتظمة ، وشعرت باقتراب أنفاسه منا ، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى ما وراءه وفى قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها .

دخلنا فى ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقاربتين إحداهما مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته ، فنظر إلىَّ متحيراً بعينيه المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له : إن ابنتك اليوم قد وقعت فى خطأ . .

كان عند كل كلمة ألقيها عليه فى شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابة من البلاهة منشؤها ذلك الأدمان ابتسامة خفيفة وترتخى أعصابه وتنحل

كنت وأنا أسرد له القصـة ، أنظر الى تلك السحنة البلهاء تارة ، وإلى غرفته أخرى . كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع ، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامه ذلك الهرم المتصابى بقوة الملاج الذى كان يستعمله .

وكانت الغرفة قذرة بقدر ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، وكان كل ما فيها عبارة عن : كراسى عتيقة مكسرة ، ومنضدة صغيرة كمناضد المقاهى عليها مشمع أسود اللون ، وزجاجات خمر ونبيذ فارغات ، وصحون قذرة ، ومصباح قد طار من زجاجه قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة ينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع ، وفيها فراش إن صح أن يسمى مثله فراشاً ، حولت نظرى المتألم عن كل هذه الأشياء وقلت له :

— لقد جئت بالآنسة الى هنا وهأنذ أسلمها اليك .

فلما سمع منى تلك الكلمة ظهر ما لم يكن فى الحسبان : ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذى ابتدأ حياته أجيراً فى أماكن الريب فى « غلطه » وأمضى قسما منها فى مرقص أنشأه بنفسه ، تقدم منى مشيراً إلى فتاته الطاهرة التى كانت تنتظر النتيجة ، وقد تجلت عليه تماماً أمارات البله وقال :

— لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد . . . !

ثم اقترب مني وقال وهو ينظر الىّ نظرة مرتاب :

— يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك . . .

فأدركت سوء نية ذلك الرجل . كم كانت يدى فى تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير ! حولت نظرى الى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار ، لأنها أدركت غاية والدها .

لله أنت أيتها المعلمة الصغيرة ! أيتها المخلوقة التى تشتغلين من الصباح حتى المساء لاشباع والدك ، هل أنت حقاً ابنة ذلك الرجل ؟!

حولت وجهها عني فلم أشك أنهـا فى تلك الدقيقة كانت تود لألمها من تلك المهانة التى لحقتها فى عصمتها وعفتها ، والجرح الذى أصابها فى كرامتها ، أن تهرب من بين يدى وتذهب الى حيث لا أراها فتبكى . . . وتبكى . . .

لم أجبه بشىء ما ، إن الرجل كان لا يزال ينظر الىّ نظرة المرتاب ، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان ، وكأنه أدرك ما دار فى خلدى ، فعرض علىّ مستهزئاً كأساً من « الكونياك » فقلت :

— شكراً . ليس لدى من الوقت ما يتسع لذلك .

وسرت نحو الباب ، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معى حتى الباب تودعنى . لكنها لم تجسر على ذلك فى بادىء الأمر ، ثم أقدمت عليه وسارت ورائى . بقى والدها فى غرفته يضحك ضحكاً عالياً كأنه يعلن به ما قاله أولاً :

« يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك !! »

تبعتنى الفتاة حتى باب الدار وقالت بصوت تخنقه العبرات :

— سيدى . . .

ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها .

حينذاك أخذت يدها وهى فى القفاز بكلتا يدى ، وشددت عليها مظهراً ألمى على تلك الزهرة الناضرة التى نبتت فى ذلك المكان الملوث ، وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها :

— أيتها الآنسة : أكرر لك جملتى السابقة وأقول . إن الصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء فى طريق الحياة . لا أظن أننا نلتقى مرة أخرى ، ولكن كونى على ثقة أننى دائماً سأتمنى لك من صميم قلبى السعادة والهناء .

فانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها ، أعلنت بهما شكرها لى .

ففررت من ذلك المحل ، وكنت وأنا أنزل الدرج أقول فى نفسى:

«لقد وعدتها أن أتمنى لها دائماً السعادة ، ولكن أين منها السعادة ؟ !

لعمرى لو رأيتها حين يبدى الربيع نواره ، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره ، على عربة من تلك العربات الفخمة ، التى يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب ، وهى متجهة نحو «شيشلى» حيث تموت الفضيلة ، وتحيا الرذيلة ، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة ، لم أعجب لذلك بعد الذى رأيت من حالها مع أبيها .

ما أتعس تلك الفتاة الصغيرة ! إنها بين شقاءين : شقاء الحاضر بأبيها المختبل ، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل .

زحلة بعلبك **فتاة الفرات**